قصص من التاريخ

٤

أم لا كالأمهات

محمد حسن الحمصي

دار الرشيد
دمشق - ص.ب ١٢١٤٢

قصص من التاريخ

٤

أمّ ... لا كالأمهات

محمد حسن الحمصي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أمي وأبي ...

إقراراً بالفضل

إلى أم عدنان ، وأخت عدنان ، وولدي عدنان ...

أملاً ورجاء

إلى كل أم وأب ...

وإلى كل شاب ناشيء وفتاة ناهضة ...

قدوةً ونبراساً

إلى المربي الكامل الفاضل ...

سرّ كل تقدم حقيقي

أهدي كتابي هذا .

أبو عدنان

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد ...

هذا هو الكتاب الرابع ، من سلسلة (قصص من التاريخ) يصدر بعون الله وتوفيقه .

ولقد كان لجمهور القراء ، الذين أقبلوا على اقتناء الكتب السابقة من هذه السلسلة ، خير دافع لمتابعة جهودي المتواضعة في هذا المضمار الواسع .

كما أن رسائل التشجيع العديدة التي وصلتني ، ما كانت في نظري إلا تعبيراً عن الإعجاب ، ليس إعجاباً بالكاتب ، بل بالأسلوب الذي وفقنا الله إليه ؛ ذلك أن الجماهير من القراء

متعطشون إلى الاطلاع على صفحات خالدات من تاريخنا المجيد، تعرض بأسلوب لطيف يسهل فهمه، وبثوب القصة الحديثة التي تحمل من أساليب الإثارة والتشويق، مايجتذب القارىء ويشعره بالارتباط الوجداني مع أبطال القصة؛ بحيث لايقطع البطل جبلاً، ولا يسير وادياً، إلا ويتلهف القارىء لأن يصعد بروحه ذاك الجبل، ويجتاز ذاك الوادي . . بل إن كثيراً من القراء كان الواحد منهم، يشعر بأن إحدى شخصيات القصة تعبر عن تطلعاته وتشوقاته، وكأنما حل هؤلاء القراء محل تلك الشخصيات التاريخية بعواطفهم وأفكارهم وتطلعاتهم، حتى إنهم ليتشوقون إلى أن يكونوا امتداداً حقيقياً لسيرة أولئك الأبطال العظام ...

ولئن دل هذا على شيء، فإنما يدل على مدى التفاعل الذي يحدث في نفوس الجيل الناشيء... كما يدل في الوقت ذاته على أن أمتنا في هذه الفترة الراهنة بأمس الحاجة إلى نفض غبار الإهمال عن صفحات تاريخنا؛ ليجري عرضها بثوب القصة الحديثة .

وما أحرانا أن نملأ فراغ شبابنا المتعطش، بقصص بطولات حقيقية، يعيش معها الإنسان ساعات من عمره؛ لعلها تورثه الاعتزاز بأصالة أمته، وتدفعه إلى الاقتداء بأعمالهم الجيدة ...

وعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، نكون جديرين بأن نصل إلى ماوصل إليه أولئك الأجداد ، الذين سادوا نصف العالم ، في أقل من نصف قرن !!

وما أحرى قصص البطولات الخالدة ، وغيرها من القصص الهادفة - أن تملأ فراغ شبابنا ، بدلاً من أن يُترك المجال واسعاً أمـــام القصص الرخيص ، يستولي على فراغهم ، ويستحوذ على اهتمامهم !! . فالأثر السيىء لتلك القصص الرخيصة لابد له إلا أن ينعكس على تصرفات شبابنا ، وأخلاقهم ، وإخلاصهم ؛ الأمر الذي يؤثر على تقدم الأمة بمجموعها .

هذا وإننا إذ نلتزم هذا الجانب من قضية أمتنا ، فإننا نلتزمه لشعورنا بأننا اليوم ، نعيش مع عدونا المتربص بنـا ، معركة إثبات شخصية أصيلة ، تعتمد على مقومات ثابتة راسخـة من الأخلاق الكريمة السامية ، والإيمان العميق ، والعمل الجاد الدؤوب ... تلك الشخصية الأصيلة ، التي تجسدت في أبطالنـــا السابقين ، الذين كان كل واحد منهم رمزاً لمعنى عظيم من أكبر المعـــاني .

ولـكم نسيء إلى أنفسنا وإلى أمتنا ، عندما نجهل أو نتجاهل هؤلاء الأبطال ، وتلك المعاني السامية التي يمثلها كل واحد منهم ،

تلك المعاني التي يصح أن تكون الأثر الذي يحتـــذى ، والمثل الذي يقتدى به ... في حين أن الأمم المتقدمة تقدس أبطالها ، وتخلد ذكرهم ؛ حتى يكونوا خير قدوة للأجيال اللاحقة ؛ على الرغم من أن كثيراً من أولئك الأبطال ، الذين وضعتهم الأمم الأخرى في أعلى المراتب ، لايمكن أن يجاروا واحداً من أبطالنا الذين غمطهم التاريخ حقهم ، فعفّت على ذكرهم الأيام ... ولست أعني أن المسؤول عن ذلـــك التقصير التاريخ الأوربي الأجنبي ، بل إن تاريخنا العربي لايكاد يذكرهم إلا لمامـــاً ، فلا يكاد يسمع بهم ، إلا من يستقصي أخبارهم في بطون الكتب القديمة !! .

وما أندر شبابنا المثقف الذين سمعوا بـ « ربيعة الرأي » !! فكيف الأمر بمن يعرف عنه تفاصيل كافيه ؟؟

وهل يجوز لإنسان عربي مسلم ، أن يجهل سيرة عالم فاضل ، كان أستاذاً للامام مالك ، صاحب المذهب المعروف ؟؟

وهل يجوز أن يعفّي الزمان على ذكرى « أم ربيعة » ، تلك الأم التي أنجبت هـذا العالم الكبير ؛ فلا يُعرف عنهـــا شيء ؟؟ .

وهل يُعقل — في هذه المرحلة النضالية من تاريخ أمتنا —

أن ننسى بطلاً من أبطالنا ، جاهداً في سبيل الله ثمانية وعشرين عاماً متواصلة ، لم يعد فيها إلى منزله ، ولم ير خلالها عروسه ساعة من الزمن ؟ !

وهل يعرف شبابنا اليوم ، الشيء الكثير عن « أم سُليم بنت ملحان » ، أم أنس بن مالك ، خادم رسول الله ﷺ ؟؟

إن تاريخنا – والله – مليء بالدرر الثمينة ... ولاينقصنا إلا من يغوص وراءها ، ويستخرجها من الأعماق ، ويحسن عرضها ... عند ذلك نستطيع أن نرى ثمارها ... وأي ثمار هي ؟ إنها الثمار الشهية التي لايعرف العالم لها مثيلاً ! !

نأمل من المولى سبحانه ، أن يأخذ بيدنا إلى تحقيق الهدف... لعلنا نستطيع أن نؤدي خدمة لأمتنا ، في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها ..

والله ولي التوفيق .

دمشق في ١٦ / ٢ / ١٣٩٣ هـ

الموافق لـ ٢٠ / ٣ / ١٩٧٣ م

محمد حسن

أم ... لا كالأمهات

« ما الذي أدخلك إلى داري ، في هذا الوقت المتأخر من الليل ، أيها الوغد اللئيم ?? » .

هكذا قال شاب في مقتبل العمر ، ذو لحية خفيفة ، وهو يمسك بتلابيب رجل كهل ، كان قد دفع الباب برمحه ، ووضع سلاحه خلف الباب ، يروم المدخل ؛ من غير أن ينتظر إذناً بالدخول من الشاب « ربيعة » الذي كان داخل المنزل .

لقد استشاط « ربيعة الرأي » غضباً ، عندما رأى رجلاً غريباً ، يدخل داره ، وفيها حرمه ... وراح يمسك بخناق الرجل ويشد على أثوابه حول رقبته ، شداً محكماً ... ولولا أن الرجل كان يدافع عن نفسه بضراوة ، ويجذب ذلك الشاب جذباً يمنعه



– ياللهول . . رجل يقتحم دار « ربيعة الرأي » وفيها حرمه !!

من الحركة ، لضغطت ثيابه على رقبته ، وسدت مجرى التنفس لديه ، وأدت به إلى الاختناق !!

وتدافع الرجلان تحت جنح الظلام الذي أرخى سدوله .. كل منهما يريد أن يقذف بصاحبه خارج الدار ...

لقد بدا الرجل الغريب جافي الطباع ، خشن المظهر ؛ وكأنما هو جندي قديم ، ألف القتال ، وألفته الحرب سنين طويلة ...

وهو لم يكن قد دخل بضع خطوات في دهليز الدار ، حين أمسك به « ربيعة الرأي» ... ومع ذلك فـإن شدة تلاحمهما جعلت محاولة كل منهما في إخراج صاحبه تستغرق وقتاً طويلاً . بحيث لم يخرج الرجلان من الدار إلا وقـد اجتمع الناس ، والتف الجيران .. يتحسسون الأمور في عتمة الليل .

لقد خيم الظلام فلا يرون شيئاً !!

ولكنهم يسمعون بوضوح صوت « ربيعة الرأي » وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ ، وهو يتهم رجلاً باقتحام داره .

وانتشر الخبر في صفوف المحتشدين ، الذين خرجوا من بيوتهم على أصوات الشجار ...

– ياللهول . . رجل يقتحم دار « ربيعة الرأي » وفيها حرمه !!

– ما الذي أدخل هذا الرجل دار « ربيعة » في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟؟

– والله لوأن والد « ربيعة » كان هنا ، لطعن هـذا الدخيل برمحه طعنة أودت بحياته في الحال !!

– أما يكفي هذا الرجل لؤماً أن يعتدي على حرمات الناس حتى يختار دار إنسان قضى حياته مجاهداً في سبيل الله ؟ !

– بل إنه ينتهك حرمة دار عـالم جليل ، مثل « ربيعة الرأي » !!

– ياللخسة والنذالة !!

– لقد ضاعت المروءة ... وأصبح الناس يتجرؤون على بيوت العلماء أفاضل الناس !!

– ياللعار والشنار ؟!

ماذا سيقول – والد ربيعة – حين يسمع بالاعتداء الشنيع على أهله وحريمه ، وهو في خراسان ، يؤدي واجبه مجاهداً في سبيل الله ؟ !

– ثمانية وعشرون عاماً ... قضاها « أبو عبد الرحمن » في الجهاد ، لم يعد خلالها إلى منزله ... ثم لايكـون جزاؤه على ذلك إلا أن يقوم هذا الوغد اللئيم بالاعتداء على أهله ? !

★ ★ ★

وتحمس الناس المتجمهرون في مـكان الشجار ، وقـد أمسك بعضهم بقناديل زيتية ، يكاد لهيبها الشاحب ينطفىء ؛ لكـــثرة الحركة والاضطراب الذي يسود الحاضرين ... غـير أن هذه القناديل ، التي كانوا يدفعونها بأيديهم إلى الأمام ، لم تجدهم نفعاً في التعرف بالمتخاصمين ، بعد أن بلـغ الزحام أوجـه ، وعادت خيوط النور الضعيفة المتراقصة غير كافية لطرد الظلام من بعيد .. ومع ذلك فقد استطاع عدد ممن كانوا في المقدمـة ، أن يبعدوا المتخاصمين ، أحدهما عن الآخـر .. وأمسكوا بالرجـل الغريب حتى لايلوذ بالفرار .

ووقف كل من الرجلين يتهدد الآخر ويتوعده ، متهمـاً إياه بالاعتداء على حرمة داره !!

واستغرب المجتمعون ، أن يلجأ هذا المعتدي إلى حيلة غريبة من نوعها ، ليفر من قبضة الحق ... وهل يمكن مثلَ هـــذا

المعتدي أن ينجو من أن تناله يد القصاص العادل ، جزاء ما اقترفته يداه من إثم وعدوان ؟!

وشددوا قبضتهم عليه ، خشية أن يفر منهم ، متستراً بجنح الظلام ... ولما لم يجده نفعاً محاولته في دفع من حوله ، ليتخلص منهم ، صاح بهم قائلاً :

ـ دعوني أيها الناس ... لانجوت إن نجا هذا الذي يعتدي على حريمي !

دعوني ... والله لو أن رمحي بيدي لأجهزت عليه ، قبل أن تأتوا ، وتحولوا بيني وبين أن أباشر حقي بنفسي !

دعوني ... أنا لها والله !

والله الذي لا إله إلا هو ، إن ملك بني أمية العريض ، ليتزعزع تحت ضربة من ضربات سيفي ... وإن عرشهم ليهتز بطعنة من رمحي .

لقد ضاعت النخوة ... ومال الناس إلى غير كفة الحق !!

والتفت إلى الحاضرين موبخاً فقال :

ـ ما هكذا كان الناس ؛ قبل أن تعود العصبية القبلية ،

لتحتل مكانها بين الناس !!

ما هكذا كان الناس ، عندما كان لكلمة الحق الصولة والسلطان !!

مالي أرى الناس غير الناس ؟؟

إني والله لأرى الوجوه قد تغيرت .. والنخوة قد طارت ... والايمان قد تزعزع !!

مالكم ؟؟ اتقوا الله ياناس !!

* * *

أما « ربيعة الرأي » فقد كان يحاول أن يدفع الناس ؛ ليقبض على خصمه المعتدي ، ويأخذ ثأره بيده ، قبل أن يفلت منه .

ولما لم يفلح في الوصول إلى غريمه صاح يقول :

– دعوني ... فإني والله رأيته يدخل منزلي وهو شاكي السلاح !!

ها هو ذا سلاحه الذي وضعه خلف باب داري .. إنه خير شاهد على مابيته من نية العدوان !



— لقد حضر « الإمام مالك » فافسحوا له حتى يتدبر الأمر .

دعوني ... فوالله لن أتركه [1] قبل أن آخذ به إلى الوالي ؛ ليجعله عبرة لمن يعتبر !!

وبلغت به الثورة أوجها ، وهو يزمجر قائلاً :

– والله إنها لحادثة ، ما جرى لها مثيل في الإسلام ، ولا في الجاهلية الجهلاء !!

ثم دفع الناس من حوله ، وهجم على خصمه يقول :

– دعوني أنتصر لنفسي ولحقي ... فإني أراكم تتهاونون في نصرة الحق ، وتتخاذلون عن إعلاء كلمة الله !!

* * *

وبينما كان الرجلان يتواثبان ، وقد تملكهما غضب شديد ، والناس حولهما في هرج ومرج ... إذ حضر شيخ المدينة المنورة « الإمام مالك بن أنس » فعرفه بعض النـــاس ، تحت أشعة المصابيح الخافتة التي انتشرت على طول الطريـــق ، فتصايحوا يقولون :

– الإمام مالك ... الإمام مالك ..

---

(١) انظر « تاريخ بغداد » جـ ٨ – ص ٤٢٢ .

– لقد حضر « الإمام مالك » فافسحوا له حتى يتدبر الأمر .
وفسح الناس له الطريق ، حتى وصل إلى المتخاصمين ..

وما إن سمع المتخاصمان باسم « الإمام مالك » حتى اطمأن كل منهما إلى أنه سوف يكون عوناً له على خصمه ...

وقبل أن يصمت كل من الرجلين ، ليسمع حكم « الإمام مالك » الذي لم يشك لحظة في أنه سيكون إلى جانبه ، نفّس عن نفسه مافيها من حدة ، بعبارة أطلقها محملة بكل مالديه من غيظ ...

فقال « ربيعة الرأي » : « ياعدو الله ... أتهجم على منزلي ؟؟ »[1] .

وقال خصمه : « ياعدو الله ... أنت دخلت على حريمي ! ! »[1]
وصمت الجميع احتراماً للامام « مالك » الذي وقف يستطلع جلية الأمر ... ولم يمنعه معرفته صوت أستاذه « ربيعة الرأي » من أن يتابع وضع الأمور في نصابها ... فهو في هذا الأمر بمنزلة القاضي ... وعليه أن يعطي كلاً من المتخاصمين حقه ..

---

(١) « من أخلاق العلماء » ص ١٥٤ .

لا يحابي أستاذاً ... ولا ينساق وراء دعوى الناس باعتداء زيد على عبيد !!

★ ★ ★

وبعد أن فهم « الإمام مالك » من حديث الرجل ، أنه دخل الدار ، التفت إليه يقول :

– أيها الرجل ... كيف تدخل دار « ربيعة الرأي » ؟؟ أما كان « لك سعة في غير هذه الدار »[1] .

فامتعض الرجل من كلام « الإمام مالك » امتعاضاً شديداً ، بعد إذ خاب ظنه في الانتصار له ... وصاح يقول :

– حتى أنت – أيها الشيخ الجليل – تخاطبني بمثل هذه الدعوى !! كيف تقول لي هذا ، وهذه الدار داري ؟ !

واستغرب ألا يعرف الناس ملكيته لهذه الدار التي ملكها منذ مايزيد على ربع قرن من الزمان ... وصاح فيهم يقول :

---

(١) « من أخلاق العلماء » ص ١٥٤

ـ هذه داري ... وأنا « فروخ » ... « فروخ » أيـ
الناس ... « فروخ » صاحب هذه الدار ... أنا « فروخ
مولى « آل المنكدر » من « تيم قريش » !!

وبلهجة من تملكه الاستياء ، أردف يقول :

ـ يالتيم قريش !!

هل من رجل رشيد يشهد بالحقيقة ؟!

★ ★ ★

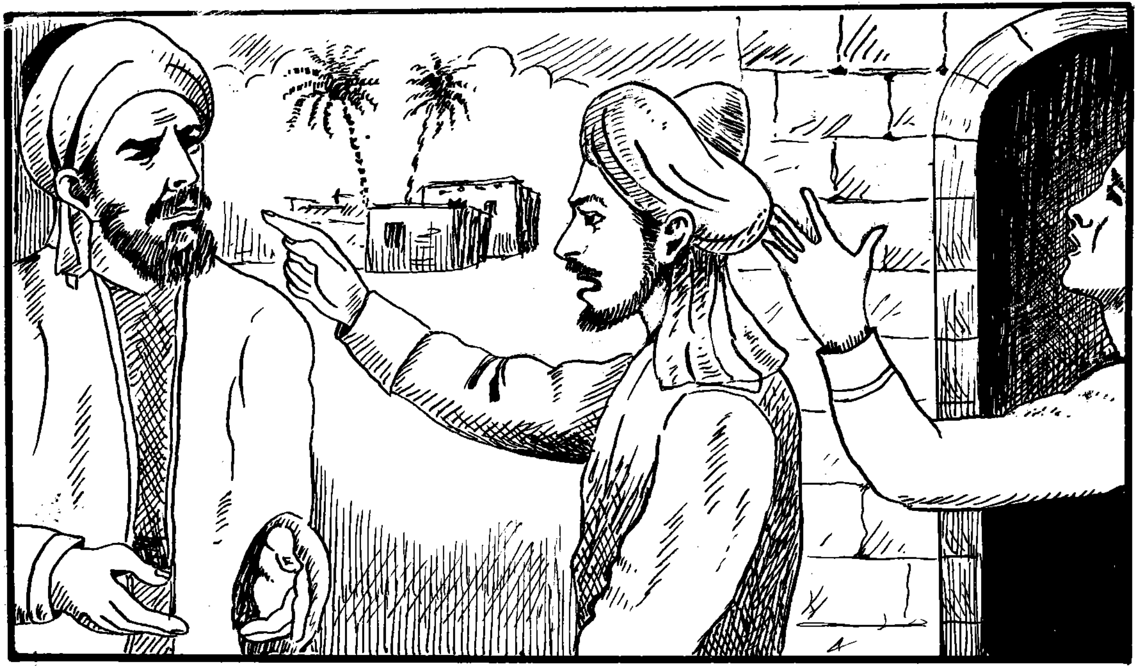
وذهب بعض الناس يقولون :

ـ « فروخ » ... « فـروخ » . . من عساه يكون
« فروخ » هذا ؟ !

وما صلته بهذا البيت ، الذي يملكه « ربيعة الرأي » كابر
عن كابر ؟؟

واستنكروا انتساب هذا الدعي إلى « آل المنكدر » م
« تيم قريش » ... فهم لم يعرفوا هذا الوجه منـــذ عشرات
السنين !!

في حين تشكك آخرون في صحة دعوى الوجل ... تر



- دعوه ياناس ... إنه زوجي وأبو ولدي « ربيعة » !!

هل يعقل أن يكون قد سمع باسم « فروخ » الذي سكن هذه الدار قبل ربع قرن من الزمان ... أم إنه « فروخ » نفسه قد حضر بعد هذه الغيبة الطويلة ؟؟ !

* * *

وسمعت « أم ربيعة » صوت الرجل ، وهـــو يقول : أنا « فروخ » ... فاضطرب فؤادها ، وراحت تتأمل عباراتـــه ؛ فإذا قلبها يزداد اضطراباً ... فتنظر إليه من خلال الضوء الخافت الذي كان يظهر شيئاً من ملامحه ، فإذا هي تعرفه ... فتصيح :

- أجل ... إنه ... فر ... و .. خ !!

إنه « فروخ » يا « ربيعة » !!

وارتسمت علامات الاستغراب والدهشة على الوجـوه ... وعبر الناس عن دهشتهم بتساؤلات ألقوها :

- فروخ ... فروخ ... من عساه يكون ؟؟

وتابعت المرأة تقول :

- « إنه زوجي »(١) !!

---

(١) « تاريخ بغداد » جـ ٨ ص ٤٢٠ .

إنه والدك يا ربيعة !!

وهــذا ولدك يا « فروخ » . . ولدك الذي « خلفته وأنا حامل به »[١] قبل أن تذهب إلى الجهاد !!

ثم صاحت بملء صوتها تقول :

- دعوه يا ناس ... إنه زوجي وأبو ولدي « ربيعة » !!

وجمد الدم في عروق الحاضرين ... ووقف الناس مشدوهين ، لا يستطيعون حراكاً ... قــد توقدت عيونهم ... وتحفزت مشاعرهم ... فما كنت ترى شيئاً يتحرك ، سوى العيون التي كانت تدور في محاجرها ، ذات اليمين وذات اليسار ، لعلها تجد تفسيراً لما تسمع !!

وبدد الصمت المطبق وقعُ أقدام كل من الرجلين ، يتجه نحو الآخر ، وهو يخترق صفوف الناس المحتشدة ...

وتلاحم الرجلان من جديد ... كل منهما يشد الآخر إلى جهته شداً عنيفاً ...

---

(١) « تاريخ بغداد » ج ٨ ص ٤٢٠ .



ودخل الأحباب الثلاثة إلى الدار ، ودموعهم تنهمر على وجناتهم ...

غير أن هذا التلاحم كان تلاحماً صامتاً ... لايصدر عنه أصوات ، غير الغمغمة والبكاء ...

ومع أن هذا التلاحم لم يكن سبباً في أن تسيل الدماء ، فإن الخدود قد شهدت اختلاط الدموع الغزيرة ، يذرفها كل منهما ، فرحاً بلقاء عظيم ، بعد غياب طويل !!

واشتد العناق ... وعلت أصوات القبلات ...

وأقبلت المرأة تلف الطرفين المتلاحمين ، بيدين حنونين ، وقد نشرت عليهما من حنانها مايتناسب مع هذا الغياب الطويل...

وذهل الناس حتى عن أنفسهم ...

وبهرت الأنفاس ... أنفاس من كانوا يراقبون ، ولكن لايدرون مايفعلون !!

* * *

ومرت لمحات سريعة ... استعرض خلالها المسنون من أهل الحي تاريخ هذا المنزل ، قبل ثمانية وعشرين عاماً ... عندما سكن « فروخ » هذه الدار ، وآلى على نفسه ، أن تكون سيدة هذه الدار المرأة الكفء . المرأة التي تكون أهلاً لتربية أبناء ، يرجو أن يكونوا ذخراً للأمة !!

كما تذكر أولئك المسنون ، أن « فروخاً » قبل ثمانية وعشرين عاماً - عندما كان في عنفوان شبابه - لم يستهوه جمال تلك الفتاة التي خطبها ؛ كما لم يستهوه حسبها أو مالها ، بالقدر الذي استهواه منها دينها ... فهو الذي كان دائماً يردد حديث رسول الله ﷺ :

(لاتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين)(١)

ومرت لحظات سريعة ... داورت خلالها أفكار كثيرة في رؤوس تلك الفئة المسنة من أهل الحي ... حتى إنهم ليكادون يتصورون « فروخاً » الشاب أمامهم ، يعتز بأن منّ الله عليه بفتاة ذات دين صحيح وأخلاق ، بالإضافة إلى عقل واسع وجمال ...

غير أن الناس الذين صحوا من سكرتهم ، خرجوا من جمودهم ، وبدؤوا يتحركون للانصراف ، فأفسدوا على أولئك المسنين تصوراتهم واستمتاعهم « بفروخ » قبل ثمانية وعشرين عاماً !!

---

(١) رواه « ابن ماجة » .

وانصرف الجميع إلى أعمالهم ، حتى لايفسدوا على الأحباب ، أجمل ساعة من ساعات العمر ..

★ ★ ★

ودخل الأحباب الثلاثـــة إلى الدار ، ودموعهم تنهمر على وجناتهم ... وهم لايدرون ما يفعلون ... ولا يدرون ما يقولون ... لقد عجزوا عن كل شيء ... حـتى البـكاء ... لقـد عجزت حناجرهم عن البـكاء فتشنجت حلوقهم !!

غير أن دموعهم ، كانت الشيء الوحيد ، الذي بقي قادراً على التعبير عن الفرحة ؛ فانطلقت العبرات ، تنحدر على الوجنات ، بغير قيد أو حساب ، وكأنما هي ماء عظـيم ، استطاع أن يحطم السد ، الذي كان يحول بينه وبين أن يلتمس طريقه في الوادي ...

ثم مالبثت الأم ، أن وجدت القدرة على البكاء ... فانطلقت في نشيـج حزين ، هز أوتار القلوب ... فغاب الجميـع في سكرة من البـكاء طويلة ... كادت تودي بحياتهم ...

★ ★ ★

وراح شريط الأحداث يمر على ذاكرة كل من الأحباب الثلاثة مروراً سريعاً ، فيعود كل منهم بذاكرته إلى الوراء ..

لسان حال الأم يلهج بالشكر لله ، على أن أعاد إليها زوجها سالماً ، قد نال شرف الجهاد والمرابطة في سبيل الله ...

أما الأب ... فإنه كان يشكر الله ؛ على أن منّ عليه بالولد الذي تركه جنيناً في بطن أمه ؛ فإذا هو يصير شاباً ، قد حل مكانه في تحمل أعباء المنزل خلال فترة غيابه ... شاباً جديراً بأن يحل محله في الجهاد ، بعد أن تقدمت به السن ...

وأما الابن ... فإنه كان يشكر الله ، على أن انجلت هذه الغمة بأمن وسلام ... لم يتسرع خلالها أحد بأمر يسبب ندامة طويلة ...

وشاءت له الأقدار ، أن يلمس بذات نفسه ، معنى من معاني عظمة الإسلام ؛ بعد إذ عاش لحظة من لحظات الحياة النادرة ، أفهمته السبب الذي حدا بالإسلام إلى أن يوجب على القاضي ، عدم الفصل بدعوى أحد المتخاصمين ، قبل أن يعرف وجهة نظر الطرف الثاني !!

ومهما يكن من أمر ، فإنه يشكر المولى سبحانه ، على أن

رد إليه والده سالماً غانماً ، قد فاز بشرف المرابطة والجهاد في سبيل الله !!

* * *

وطال الصمت ... وشط الخيال ...

وبدأت المخاوف تتسرب إلى نفس الأم ...

لقد حضر زوجها ... ولا بد أنه سائلها عن المـال الذي تركه لديها ... ذاك المال الذي تركه ولم يبق لديهـا منه درهم واحد !!

وانطلق صوت الابن يبدد السكون المطبق ، طالباً من أبيه أن يحدثه عما يحمله من أخبار ...

غير أن صوت « ربيعة » الذي بدد السكون المطبق ، لم يستطع أن يبدد مخاوف الأم ... تلك المخاوف ، التي لم تفلح في ازاحتها جانباً إلا بجهد بالغ ...

وسارعت « أم ربيعة » تضيف صوتها إلى صوت ولدهـا ، في أن يحدثهما القادم الجديد ، عما يحمل في جعبته ، من أخبـار الجيش الاسلامي الذي سار مشرقاً ، في خراسان وفي بـلاد ما وراء النهر ...

فأنشأ الفارس يقول :

- والله لكأني بك - يا أم ربيعة - تودعينني ، قبل ثمانية وعشرين عاماً ، عندما لبست لأمة الحرب ، وأمسكت رمحي بيدي ، واعتليت صهوة حصاني الأبلق ! !

وتابع الأب - موجهاً خطابه إلى زوجه - يقول :

- لقد صحت يومذاك تقولين : في رعاية الله وسلامته يا أبا عبد الرحمن ... وفقكم الله ... ومنّ عليكم بالنصر المؤزر .

- أو تذكر تلك العبارة ، التي أجبتني بها يومذاك يا أبا عبد الرحمن ؟ !

هكذا قالت « أم ربيعة » ، وكأنما هي تسبح في حلم جميل !!

« فروخ » : وكيف أنساها ، وهي العبارة التي غيرت مجرى حياتي كله ؟؟! لقد نذرت ألا أعود إلا بعد أن أسقي جوادي من نهر « سيحون » ... ذاك النهر الذي استعصى على المسلمين زمناً طويلاً ... كما آليت على نفسي ، أن أكون مع أولئك ، الذين يحملون مشعل النور إلى سكان بلاد ماوراء النهر [1] .

---

(١) هي بلاد « الصغد » . وهي مايعرف اليوم ببلاد « بخارى » و « سمر قند » .

وكأنما استدرك « فروخ » أمراً ما ... فالتفت إلى « أم ربيعة » يعاتبها بقوله :

ـ ولكن أونسيتِ أنت ماقلته لي حينذاك ؟؟

« أم ربيعة » : لا ... لم أنسه . . . إنها الكلمة التي كانت تدوي في أذني ، طوال ربع قرن من الزمان ... إنها الكلمة التي أعطتني الجلد على أن أصبر وأصبر ...

« ربيعة » : وماذا قلت يا أماه ؟؟

« أم ربيعة » : لقد قلت لأبيك ، تلك العبارة التي مازالت نغماتها المتاوجة تقرع أذني ، وكأنني أقولها الساعة : وإذا لم يتحقق لك ذلك هل تعود إليّ وأنت تجر أذيال الخيبة ؟؟

« ربيعة » : يالها من كلمة تحمل بين طياتها نذير شؤم ، إذا ما كانت الخيبة ـ لاسمح الله ـ بقدر ما تحمل ألفاظها من بالغ القسوة ، إذا ماوقعت في أذن مؤمن عزيز النفس !!

وبعد أن صمت « ربيعة » هنيهة تابع يقول :

ـ وبماذا أجابكِ والدي يا أماه ؟؟

« فروخ » : لقد أقسمتُ يميناً بالله ، ألا أعود ، إلا بإحدى الحسنيين : النصر الذي أريد ، أو الشهادة ...

« ربيعة » : وها أنت ذا ـ والحمد لله ـ قد بررت بقسمك يا أبت .

« فروخ » : وهل أستطيع ألا أبر بقسمي ، بعد أن هددتني أمك بطردي من منزلي هـــذا ، إن أنا عدت من غير تحقيق ما أقسمت عليه ؟!

« ربيعة » : وكيف كان ذلك يا أم ؟؟

« أم ربيعة » : لا ... إنني لم أتهدده ... ولكنني ذكرته بما فعلته الصحابيات ـ عليهن رضوان الله تعالى ـ من أهل بيت المجاهدين الذين اشتركوا في غزوة « مؤتة » عندمـا عادوا وهم لايحملون في جعبتهم النصر المرتقب ...

إنهم لم يتجرؤوا على دخول المدينة إلا في الليل ...

ولكن الأخبار كانت قد سبقتهم ... فما تكاد الأم تسمع صوت ابنها ، والزوجة تسمع صوت زوجها ، والأخت تسمع صوت أخيها المجاهد ، حتى تطرده ، وتغلق الباب دونه ، وتعنفه بقولها : عد أيها الفرار من حيث أتيت ، ألم تستمع إلى قولـه تعالى : **« ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »**[1] ??

---

(١) « سورة الأنفال » : الآية ـ ١٦ ـ

ثم تشدد المرأة من لومها وهي تقول :

- كيف ترضون بالفرار ، أمام جيش الرومان ؟؟

- كيف تفرون من الموت ، بعد إذ وجدتم أنفسكم بين ظهراني الموت ؟؟

- كيف تفرون مما كنتم تطلبونه ، وعاهدتم رسول الله عليه ؟؟

ثم تغلق تلك المرأة بابها ، من غير أن تستمع إلى الجواب !!

« ربيعة » : وتلقاهم المسلمون في الطرقات ، يحثون في وجوههم التراب ، ويقولون لهم : يافرارون ... فررتم عن سبيل الله !!

ولا يجد أولئك المشردون ؛ إلا أن يلتجئوا إلى رسول الله ، على استحياء منهم شديد !!

« أم ربيعة» : أجل .. ولولا أن رسول الله ﷺ نصرهم وقال :

- « بل هم الكرارون »[1] لما جرؤ أحد منهم على ملاقاة

(١) « السيرة الحلبية » ج ٣ ص ٨١

الناس ... بل إن رسول الله ﷺ جعل يطلب أولئك الذين جلسوا في بيوتهم استحياء مما فعلوا .. يرسل إليهم رجلاً رجلاً ثم يقول : « أنتم الكرارون في سبيل الله »[1] تشجيعاً لهم ، ورفعاً لمعنوياتهم بين الناس .

« فروخ » : وماذا قلتِ أيضاً يا أم ربيعة !!

« أم ربيعة » يكفي هذا يا أبا عبد الرحمن !!

« فروخ » : ألم تقولي : والله إنك لن تجد من يسميك كراراً ??

ألم تقولي أيضاً : إنك لن تجد من يقول لك : أنا فئتك التي تنحاز إليها .

« أم ربيعة » : أجل . . قلت هذا ... وأنا لاأريد تهديدك .. ولكني كنت أريد أن أشد من عزيمتك ، إلى أبعد الحدود حتى إذا ماذهبت إلى ساح الوغى ، مجاهداً في سبيل الله ... لاتكاد تفكر فيّ ... ولا أكاد أخطر لك على بال ؛ إلا وتجد من ذكراي حافزاً ودافعاً لك على مواصلة الجهاد ... لايثنيك عن ذلك أهل أو ولد !!

---

(١) « السيرة الحلبية » جـ ٣ ص ٨١

« فروخ » : بارك الله فيك يا « ام ربيعة » .. وهذا ما كان .. فوالله ما كنت أصعد جبـــلا ، ولا أهبط وادياً ، إلا وكانت ذكراكِ في مخيلتي ، تدفعني إلى أن أكون في أول الصفوف .. وإني لأعتقد أنك قد شاركتني في الأجر ، وأنت هنا في هذا المنزل ...

بارك الله بك من امرأة كان لها الفضل ، كل الفضل ... والله ، إن أنس ما كنت أنسى صورة « جعفر بن أبي طالب » وهو يطير مع الملائكة ... تلك الصورة ، الـــتي عملتِ على طبعها في مخيلتي ، ساعة فارقتك !! ألم تذكريني بما فعله « جعفر » الذي قاتل وهو يحمل الراية ؛ « حـتى إذا ألحمـه [1] القتال ، اقتحم عن فرس له شقراء ، فعقرها ؛ ثم قاتـل القوم ، حتى قتل ، وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبةً وبارداً شرابهـا
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابهـا
علي إذ لاقيتها ضرابُها

والله ـ يا أم ربيعة ـ ما كانت كلماتك لتغيب عن ذاكرتي ..

---

(١) ألحمه القتال : نشب فيه فلم يجد مخلصاً .

تلك الكلمات التي قلت فيها : « إن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ؛ فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، رضي الله عنه ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ؛ فأثابه الله بذلك ، جناحين في الجنة ، يطير بهما حيث شاء »[١] .

وصمت « أبو عبد الرحمن » هنيهة ، يكفكف دمعة اغرورقت في عينيه ، ثم تابع يقول :

- بارك الله بك - يا أم ربيعة - من امرأة مؤمنة ؛ باعت نفسها وحياتها الزوجية في سبيل الله !!

بارك الله بك من امرأة شاركت في الجهاد ، وهي بعيدة عن خط القتال أكثر من ألفي ميل !!

لا والله ... لن يضيع عملك هذا أبداً ... ألم يقل المولى سبحانه : **« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً »**[٢]

فانبرى « ربيعة » يقول :

---

(١) عن « تهذيب سيرة ابن هشام » ج ٢ ص ٤٧ - ٤٨ .

(٢) « سورة الكهف » : الآية ٣٠.

- وكيف يضيع أجر عروسين في مقتبل العمر ، باعا حياتهما وسعادتهما الزوجية لله ... ودفعت الزوجة بزوجها إلى الجهاد ، في بعوث خراسان ؟؟ وأي جهاد هذا ؟؟ إنه جهاد العمر .. فيه يقدم الإنسان أقصى ما يملك ، في أشد الساعات رغبة فيما يملك ، وهو صحيح شحيح متمكن .. صحيح ، لا يخشى الموت ، ولم يمل الحياة ... شحيح ، يخشى أن يفقد ما بين يديه من عمر ، قد تعلق بما لديه من حياة ... متمكن ، قد فرض سيطرته على ما يملك ، لم يزهده في ملكه شيء من مرض أو فقر !!

واغرورقت الدمعة في عين « أم ربيعة » وهي تقول :

- والله ، هذا ما كنت أعزي النفس به ، طوال السنين الماضية ...

وما كادت الدمعة تجد طريقها إلى خد أم ربيعة ، حتى انطلق ابنها يعتب عليها بقوله :

- أتعودين إلى البكاء يا أماه ؟؟

- والله لقد لازمتك طوال سبع وعشرين سنة ، ربيتني خلالها ، ما رأيت لك فيها دمعة تترقرق في مؤق ، وما رأيت ابتسامة رضى ، تغيض من وجهك المشرق !!

« أم ربيعة » : لم أبق قادرة - يابني - على أن أتمالك نفسي ... لقد نفد صبري ، بعد إذ أحسست بانتهاء المهمة التي ندبت نفسي إليها .. لقد آليت أن أكون أقوى دافع لوالدك على متابعة جهاده ، واستطعت - بفضل الله - أن أثابر على عهدي هذا ، ووفيت نذري على أفضل وجه !!

وبعد أن تنهدت من الأعماق ، تابعت تقول :

- أما الآن ، وقد انتهت المهمة ؛ وعاد والدك وقد جاوز الستين . .

أما الآن ، وقد انجاب الستار الذي كان يغيّب وراءه آلام الفراق الطويل . .

أما الآن ، وقد خلت ساحة شعوري ، من كل ما يعترض مشاعري الدفينة ، فظهرت تتدفق كالسيل العاتي ..

لم يبق لدي قدرة على التحمل . . ولم يبق لدي صبر على ما كنت أقاسيه من آلام ، عملت على دفنها في أعماق نفسي ، فلم أسمح بأن يظهر شيء منها على محياي ... ولم يبق لدي طاقة على كتمان الأثر الكبير ، الذي فعله الزمان الطويل في نفسي .. ولم يبق لدي مجال إلا أن أترك نفسي على سجيتها .. أن أبكي ... أريد أن أبكي ... لا شيء إلا أن أبكي ...

واستغرقت الأم في نشيج طويل ...

وبللت الدموع صدر الأب الذي ضمها بحنان ...

ووقف الابن ، في غمرة من الدموع الغزيرة يذرفها ... وقف حائراً أمام والديه .. لايدري ماذا يفعل !!

ولا يعرف ماذا يقول ...

ولا من أين يدخل ...

ولم يجد إلا أن يشارك بالبكاء !!

ووقف الجميع يبكون ...

يبكون ... وهم لايدرون لماذا يبكون ...

يبكون ... وهم لايدرون ماذا يفعلون إلا البكاء ...

يبكون وهم يرون أن البكاء قد صار غاية ومقصداً ...

* * *

وانتظر الابن ملياً ، حتى وجد الوقت المناسب ، ليطلب من والدته أن تتجمل بالصبر كعهده بها ، وألحّ عليها أن تطرح تلك الأفكار المتخاذلة ... ثم نصحها بأن تذهب إلى النوم ؛

لعلها تجد شيئاً من الراحة ، بعد إذ شارف الصبح على الانبلاج .

وانصرف الجميع ... كل إلى فراشه .

● ● ●

وضع كل منهم رأسه على وسادته ، وهو يظن أنه الشخص الوحيد الذي سيبقى مستيقظاً ... فله الحق في ألا ينام ... فهناك الكثير من الأفكار التي يحتاج إلى أن يناقشها في منجاة من تدخل الآخرين ... إنه يريد أن يستعرض كثيراً من الأمور التي تراود نفسه : لعله يصل إلى نتيجة !!

• • •

لقد ذهبت الأم تفكر في أمر عاد مرة أخرى إلى ساحة شعورها ، فبدد بكاها ، وأعادها إلى ما كانت عليه من تجلد وتصابر ...

إنها لم تكد تخلو بنفسها حتى خطر ببالها ، أن زوجها لربما سألها في الصباح ، عن الأموال التي أودعها عندها ، قبل أن يذهب إلى الجهاد ، ثلاثين ألف دينار ...

بماذا ستجيب الزوج عندما يطلب أمواله ؟؟

★ هل تقول له : سُرقت ؟؟

ـ معاذ الله ... فإنها ما اعتادت الكذب !!

★ هل تقول له : إنها عملت بها في تجارة فخسرت ؟؟

ـ معاذ الله أن تقول غير الحقيقة !!

★ هل تقول له : إنها أنفقتها على شؤون معيشتها هي وابنها ، حتى كبر الولد ؟؟

ـ لايمكن لهذا المبلغ الضخم أن يصرف على أم وابنها ... اللهم إلا إذا كانت مبذرة متلافة للأموال !!

★ هل يقبل زوجها الحقيقة عارية ؟؟

إنها أنفقتها على تعليم ولدها ، فدفعت المبالغ الطائلة ، إكراماً لأساتذة ولدها ، أولئك الشيوخ المربين الذين أحسنت اختيارهم، واغدقت عليهم الأعطيات ؛ حتى يزدادوا اهتماماً في أمر تعليم هذا الولد ؟؟

ـ قطعاً ... إن زوجها لن يقبل منها أن تتصرف بأمواله، إلى هذا الحد الذي خرج عن المألوف ... فلم يُعرف قط ، أن تعليم ولد ، يكلف هذه المبالغ الطائلة !!

★ فماذا تفعل إذن ؟؟ بماذا تجيبه ؟؟

وراحت الأم تطرح على نفسها سيلاً من الأسئلة والأجوبة ..

وكلما وجدت جواباً ، يكاد يكون مقنعاً ، لمست فيه ثغرة تؤدي به إلى التهالك ، فترفضه رفضاً باتاً ...

وبقيت في حيرة من أمرها ... لا تكاد تبرم أمراً حتى تنقضه ... ولا تكاد تنسج غزلاً حتى تنقضه ... إلى أن طلع الفجر ، وصاح المؤذن يقول :

الله أكبر ... الله أكبر ...

فهبت من فراشها وهي لاتحير جواباً !!

. . . .

أما الأب ... فلم يكد يضع رأسه على وسادته ، حتى شعر بأنه أدى واجبه الكبير في الجهاد ... وها هو ذا قد ذرّف على الستين ... ولم يبق عليه إلا أن يستريح ، ويركن إلى مالديه من مال !!

إنه لم يكن يبالي بالغنائم ... يترفع عن جمعها ... ويجود بالأعطات على ذوي الحاجات ... حتى عاد إلى أهله ؛ وهو

يكاد يكون خالي الوفاض ، من مال يعينه على تحمل أعباء الحياة !!

ولكنه لم يكن بحاجة إلى أموال يأتي بها ... فهو الرجل الذي لم ينهب لعرض زائل من الحياة الدنيا ... بل إنه ذهب ليؤدي الواجب الكبير ؛ في نشر لواء الدعوة الإسلامية عالياً خفاقاً ... وها هو ذا قد قام بالواجب خير قيام ... وما عليه اليوم إلا أن يعتمد ، على ما كان لديه من مال أودعه لدى زوجته ... وحسبه من جهاده أن يعود برضى الله ... ألا يرضيه أن يعود الناس بالدرهم والدينار ، ويعود هو برضى رب العالمين ؟؟ ذلك ما كان يبغي ... وذلك الأمل والمنى .. وهو به راض كل الرضى !!

وتمنى أبو عبد الرحمن ، لو أنه سأل زوجته عن الأموال التي تركها لديها ؛ ليعرف مابقي منها ، فتطمئن نفسه ؛ ويعرف كيف يرتب أموره !!

ولكن الأمور ـ هذه الليلة ـ لم تكن تجري على ما كان يريد .. فالموقف العاطفي المتأجج ، لم يسمح له ـ لا من قريب ولا من بعيد ـ بأن يفهم شيئاً ، مما يدور في خلده الآن ...

وراح يفكر في عمق ، وقد اعتلت وجهه أمارات الحيرة .. ترى ماذا بقي لديها من تلك الأموال ؟؟

★ هل صرفت نصفها وبقي النصف ؟؟

ـ لا ... إنني أعتقد أن « أم ربيعة » امرأة أريبة ... لايمكن أن تفعل ذلك ، فتبذر أموال زوجها !!

★ هل صرفت ربعها ... بل نصف الربع ؟؟

ـ إن هذا كثير والله ... بل لربما لم تحتج أن تنفق منها إلا النزر اليسير ، لأن « ربيعة » لربما عمل خلال هذه الفترة، ,جنى شيئاً من الأموال ! !

★ ترى .. هل لي أن أفكر بأن ما أخذته « أم ربيعة » من الأموال قد أعاده « ربيعة » بعمله وجده ؟؟

ـ لربما كان ذلك ... « فربيعة » و « أم ربيعة » أهل ل خير !!

وصحا الأب من هواجسه هذه ، على صوت المؤذن يقول :

ـ الله أكبر ... الله أكبر ...

فنهض من فراشه ، وثلاثون ألف دينار تلتمع في مخيلته .. له من حسن ظنه بأم ربيعة أكبر دافع ، إلى أن يرى معظمها ، لم يرها كلها ... وهو ينتظر أقرب فرصة ليطمئن قلبه عليها ،

ويمتع ناظريه برأى ألوف الدنانير البراقة ... ألا ما أحلى منظر الذهب البراق ، في قدره المختوم !!

. . . .

أما الابن ... فانه لم يكد يخلو بنفسه ، حـــتى انتصب واقفاً جهة القبلة ، يصـلي شكراً لله ، على أن رد إليـه والده سالماً غانماً ، قد أرضى ربه ، وفاز بعبير الجنة . .

ووضع « ربيعة » جبهته على التراب ، ساجداً لله ، حامداً لمولاه عظيم فضله ، وعميم إكرامه ...

واستغرق في سجوده ومناجاته لربه ، وانهمرت الدموع من يه ، حتى استحال التراب طيناً ... ولسانه أعجـز من أن يستطيـع التعبير عن الشكر لمولاه !!

ولم يصح من غيبوبته ومناجاته الإلهيـــة ، إلا على صوت ؤذن يقول :

ـ الله أكبر ... الله أكبر ..

فأسرع يختم صلاته ، قبل أن ينهي المؤذن هتاف الحق ... ـلاة خير من النوم ».

وقام يتلمس حوائجه ومتاعه ، من غير أن يصدر صوتـــاً يزعج والديه ... فلقد أشفق عليها أن يستيقظا باكراً ، بعـد ما أصابهما من جهد .

غير أنه فوجىء بوالديه ، وقد تحرك كل منهما من فراشه، يبغيان الاستجابة لنداء الخير « حي على الفلاح » .

● ● ●

وسارع الابن إلى المسجد النبوى ... في حين أن الأب ، ذهب يتلمس عذراً يتأخر به عن ابنه ؛ لعله تتـاح له فرصة ، يطرد بها الهواجس الـــتي سيطرت على ذهنه ، بجواب سؤال واحد يطرحه على « أم ربيعة » .

وكان له ما أراد من الانفراد بزوجه « أم ربيعة » ... وطفق يفكر في وسيلة ، تمهد له السبيل ليطرح السؤال الذي أراد ...

غير أن « أم ربيعة » التي كانت تخشى هـــذا السؤال سارعت إلى الإلحاح عليـــه ، بالانصراف إلى المسجد ... الحرم النبوي ... ليؤدي فيه صلاة الصبح ... فإنه قد فا الصلاة في هذا المسجد المبارك ثمانية وعشرين عاماً ...

ذا قد حضر المدينة المنورة ... وما عليه إلا أن يسارع إلى اكتساب هذا الخير العميم ... فالصلاة فيه تعدل الف صلاة .. إنه أحد المساجد الثلاثة التي تُشد إليها الرحال !!

وتباطأ الأب في ارتداء ملابسه ...

وسارعت الأم في إحضار كل مايطلبه ، وكل مايمكن أن يطلبه ... لعلها تقذف به بعيداً عنها ساعة من الزمن ، تفكر خلالها فيما تستطيع فعله ...

ورأى « فروخ » نفسه مضطراً لأن يرحل إلى المسجد ، قبل أن يريح فكره المتعب ، ويطرد الهواجس الكثيرة . فلم يجد بدأ من أن يطرح سؤاله ؛ سواء أكان الوقت مناسباً ، أم غير مناسب ... بل إنه لربما لم يجد وقتاً أكثر ملاءمة من هذه الساعة .. إذ أنه إذا لم يغتنم هذه الفرصة ، فربما لم يتح له أن يخلو بها قبل أيام ... فالضيوف سيقبلون ... والمهنئون سيتوافدون ... والأعمال ستتلاحق ... وإلى متى سيبقى في هذه الدوامة من التفكير ، لايدري ماسيؤول إليه حاله ؟!

لذلك فانه قد قرر أن يتخلص من ربقة هذه الهواجس ، باغتنام الفرصة المتاحة أمامه ... فالتفت إلى زوجه يقول :

ـ يا « أم ربيعة » ... لاتتعجلي في دفعي إلى المسجد ...

فظنت الزوجة أن « فروخاً » قد أحس بنياتها ... فانتابها دوار عنيف ...

وابتعد بها الخيال لحظات معدودات ...

وذهبت تتصور مايمكن أن يفعله زوجها ...

صور سريعة من مواقف رهيبة ... ترددت في مخيلتها خلال لمحات ...

وخارت قواها ... ولولا أنها اعتمدت على الجدار الذي كان بالقرب منها ، لسقطت مغشياً عليها !!

أما « فروخ » الذي كان يأخذ نفسه ببطء وكأنما هو يتهيأ لمتابعة حديثه ، فإنه لم ينتبه لما أصابها ... ذلك أنه كان مشغول الفكر في إيجاد المدخل المناسب ...

ومضت لحظات سريعة ... لم يجد خلالها « فروخ » مايوطىء به لحديثه الذي يريد أن يفضي به إلى امرأته ، فذهب يطرح سؤاله من غير تمهيد فقال :

ـ يا « أم ربيعة » ... أريحيني أراحك الله ... ماذا فعلتِ

بالأموال التي تركتها لديك ، قبل أن أذهب إلى الجهاد ؟؟

ورأت « أم ربيعة » نفسها في مواجهة سؤال محرج ، في ظروف غير مناسبة ، فقررت سريعاً أن تؤجل الجواب ، إلى حين تستطيع تهيئة الزوج ، لقبول الأمر الواقع ...

ولكن ذاك السؤال المحرج كان يتطلب جواباً ... إنه لايحتمل التسويف أو المماطلة ... كلمة تقولها ... إما أن تقول : المال موجود لدي .. أو أن تقول : غير موجود ...

غير أنها أختارت الجواب الأول ... تعلل به زوجها ، ريثما تجد ماتقنعه به ...

وقالت كلمتها : « المال موجود لدي » وهي تظن أنها ستحسم الموقف ، وتدفع بذلك « فروخاً » إلى أن يذهب إلى الصلاة ، حتى تتدبر الأمر ...

ولكن هذه الكلمة ، أدخلت من الفرح والسرور ، على قلب « فروخ » ، ماشغله عما هو فيه ، من الاستعداد للصلاة .. فراح يشكر الله ، ويرتب أموره ، فيما سيفعله بهذه الأموال التي ستوفر له السعادة ، في أخريات أيامه !!

وازداد موقف « أم ربيعة » احراجاً ... فهي لم توفق في

إبعاد زوجها عن الدار لحظة واحدة ... كما لم توفق في إبعاد ذهنه ، عن التفكير في الأموال التي بدأت تتواقص أمـــام ناظريه ، ثلاثين ألف دينار !!

وراح « فروخ » يثني على زوجه ، ويطلب منها أن تمتع ناظريه بمرأى الدنانير ...

وكادت « أم ربيعة » يُسقَط في يدها ... لولا أنها سارعت في دفعه إلى الصلاة ، وقالت :

ـ الصلاة يا « أبا عبد الرحمن » ... الصلاة ... لربمـــا فاتتك تكبيرة الإحرام ... تلك التكبيرة التي كنت تحرص على ألا تفوتك في صلاة من الصلوات ، في مسجد رسول الله ...

وأحس « فروخ » بوجهه يلتهب خجلاً ... فمسح قطرات العرق المتصببة على جبهته المحمرة كالورد ... واستدار جهة الباب وهو لايـكاد يرى ما أمامه ... غير أنه سمع زوجه تقول له ، وهو يسير في دهليز البيت :

ـ اطمئن يا « أبا عبد الرحمن » ... فإنه لم يضـع من مالك شيء ...

اطمئن على مالك ... فلقد دفنته ... وأنا أخرجه بعـد

أيام ، [1] ... ولن يتسنى لي أن أخرجه بمثل هذه السهولة التي تتصورها ... اذهب الآن إلى صلاتك ...

وأغلقت « أم ربيعة » الباب على نفسها ، بعد أن انصرف زوجها ... وذهبت غارقة في بحر من الهواجس والأفكار ... تتقاذفها ذات اليمين ، وذات اليسار ... لاتدري ماذا تفعل ... ولا بماذا تجيب ...

وذهبت تلوم نفسها تاره ، على ما أجابت به زوجها ، من أن المال موجود لديها ... وتعمل على إقناع نفسها تارة أخرى ، بأنها كانت في موقف محرج ، لاتستطيع أن تجيب بغير الذي كان منها ...

ورجعت بها الذاكرة إلى الوراء قليلاً ... لتحمّل نفسها المسؤولية ، لأنها كانت تنفق الأموال بغير حساب ، على تعليم ولدها ... كيف فعلت ذلك ، من غير أن تفكر في المصير ، الذي ستؤول اليه غداً ، إذا ماحضر زوجها « ابو عبد الرحمن » وسألها عن المال ؟؟

وسرعان ماتتنصل من هذه المسؤولية ... فهي ما فعلت إلا

(١) « تاريخ بغداد » : ج ٨ – ص ٤٢٢

ماينبغي ... لقد وفرت لولدها المنـــاخ العلمي المناسب ... وعملت على تحقيق أملها الكبير في هذه الحياة ، وهو أن ترى ولدها يطلب العلم ، وعملت على تحقيق أمر النبي الكريم ، بطلب العلم عندما قال : (طلب العلم فريضه على كل مسلم)[1] ...

كما أنها عملت ، على أن ترفع من مكانة ابنها عند الله جل وعلا ؛ فيسرت له أن تضع له الملائكة أجنحتها ، رضاً بما يصنع .. كما عملت على أن تمهد له الطريق إلى الجنة ؛ ذلك أنهـا سمعت أن رسول الله ﷺ قال : (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهل الله له طريقاً إلى الجنة ؛ وإن الملائكة لتضع أجنحتهـــا لطالب العلم ، رضاً بمـــا يصنع ؛ وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في الماء ؛ وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ؛ وإن العلمـــاء ورثة الأنبياء ؛ لإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ؛ فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[2] .

---

(١) رواه « ابن ماجه » وغيره .

(٢) رواه « أبو داوود » و « الترمذي » و « ابن ماجه » و « ابن حبان » في صحيحه و « البيهقي » .

فكيف تقبل « أم ربيعة » أن تكون هي المسؤولة عن أموال زوجها ... وهي قد فعلت مافعلت ، وأنفقت ماأنفقت طاعة لله ورسوله ، ورغبة في أن تنيل ابنها « ربيعة » أرفع الدرجات ؟!

كيف ترضى أن تكون هي المسؤولة عن أموال زوجها... وهي قد عملت ، على توريث ابنهـا جزءاً من ميراث رسول الله ﷺ ... وهل يتردد مؤمن في إنفاق أمواله كلها ، من أجل الحصول على جزء يسير من ميراث رسول الله ﷺ ؟؟ فكيف وهي قد وفرت له النصيب الأوفى ، من ذاك الميراث الضخم ... إن رسول الله ﷺ لم يورث درهماً ولا ديناراً ، بل إنما ورث علماً يُنتفع به ...

لقد وقف « أبو هريرة » ـ رضي الله تعالى عنه ـ ذات يوم في سوق المدينة ، ونادى بملء صوته : « يا أهل السوق » ... فلما اجتمعوا حوله قال لهم : « ما أعجزكم !! قالوا : وما ذاك يا أبا هريرة ؟ قـال : ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ها هنا ، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه ؟ قالوا : وأين هو ؟ قال : في المسجد ... فخرجوا سراعاً ... ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا ... فقال لهم: مالكم ؟ فقالوا : يا أبا هريرة قد أتينا المسجد ،

فدخلنا فيه ، فلم نرَ فيه شيئاً يُقسم ... فقال لهم أبو هريرة : وما رأيتم في المسجد أحداً ؟ قالوا : بلى رأينا قوماً يصلون ، وقوماً يقرؤون القرآن ، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام ... فقال لهم أبو هريرة : ويحكم ! فذاك ميراث محمد عليه الصلاة والسلام »[1] .

وذهبت « أم ربيعة » تردد تلك العبارة التي سيطرت على مجامع نفسها ، فما كانت تترك مخيلتها أبداً : « ذاك ميراث محمد عليه الصلاة والسلام » ... « ويحكم فذاك ميراث محمد عليه الصلاة والسلام » !!

إذن .. لابد إلا أن يكون العلم خيراً من المال ...

تلك هي النتيجة التي توصلت إليها أخيراً ... ولكن ... هالها أن يتراءى لها ذاك الفارس الصنديد ، المربوع القامة ، يمتطي جواده ، حاملاً سيفه ... يمثل أمامها دون سابق استئذان ...

ولما عرفت أنه طيف أمير المؤمنين « علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه ، تبدد من نفسها ما كان حل بها من روع

(١) رواه « الطبراني » في « الأوسط » باسناد حسن .

وفزع ، واطمأنت إليه وهو يحدثها بقوله : مالك يا أمة الله ؟؟ « العلم خير من المال » .. ألا تذكرين ماقلته « لكميل » ؟ لقد قلت له : « يا كميل ... العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تُنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق »[1] .

وخُيل إليها أنها أجابت أمير المؤمنين ، بأنها قد دفعت ابنها إلى طلب العلم ، وأنفقت عليه كل مالديها من أموال، حتى صار عالماً لايجارى ... فتراءى لها أنه أجابها بقوله : نِعم ما فعلت ... « العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثُلم في الإسلام ثلمة ، لايسدها إلا خلف منه »[2] ثم تراءى لها وهو ينشد أبياتاً كان قد نظمها في هذا المعنى[3] :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم | على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه | والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبداً | الناس موتى وأهل العلم أحياء

وما كاد يتم إنشاد هذه الأبيات ، حتى همز فرسه ، وغار مرآه من عينيها ...

وصحت من تخيلاتها هذه ، وقد انجلت عن نفسها تلك

---

(١) « احياء علوم الدين » ج ١ ص ١٤
(٢ و ٣) عن المصدر نفسه .

الغمة ، من مخافة المسؤولية ، في إنفاق مال زوجها ، ورات أنها لم تفعل إلا ماتستحق عليه الحمد والثناء ...

وتذكرت ما فعله أحد التجار ، عندمـــا حفظ ولده سورة الفاتحة ... لقد أرسل إلى معـلم ولده ألف درهم ... فتعجب المعلم من وفرة ما أعطي ، وراح يسأل : « ماصنعتُ حتى أرسل إلي هذا » ؟؟ وكان الجواب أن دعاه الأب ، واعتذر اليـــه وقال له : لاتستحقر ماعلمتَ ولدي ... والله لو كان معنـــا أكثر من ذلك لدفعناه إليك ، تعظيماً للقرآن »[1] .

تذكرت « أم ربيعة ـ» تلك الحادثة ، وراحت تناقش نفسها الحساب ، على ضوء هـــذه الحادثة ، فوجدت أنها قد قصرت في الإنفاق على تعليم ابنها ... خصوصاً وأن ابنها قـد بلغ من العلم مبلغاً عظيما ، وصار المحدث الذي لايدانى ... حتى إن مجلسه في العلم أصبح يضم من الشيوخ الأعلام ، ما يخولها أن ترفع رأسها عالياً.. وحسبها أن ابنها صار أستاذاً للامام « مالك » شيخ المدينة ومحدثها واستاذاً للعديد من كبار العلماء والفقهاء والمحدثين ...

---

(١) « من أخلاق العلماء » : ص ١٥٤

ألا يكفيها ذلك المجد العظيم فخراً واعتزازاً ؟؟ أليس هذا الولد أفضل لديها من ثلاثين ألف دينار ؟؟

المال ينهب ويضيع .. أما العلم فإنه باقٍ لايضيع أبداً..

★ ★ ★

لقد خرج الأب من منزله متأخراً ، يباعد مابين خطواته .. لعله يصل إلى المسجد بسرعة ، قبل أن تقام الصلاة !!

ووقف في مؤخرة الصفوف ، يصلي مع الناس ... وما كاد ينتهي من صلاته ، حتى عادت به الذاكرة ، إلى ما قبل ثمانية وعشرين عاماً ؛ حين كان يتردد إلى هذا المسجد النبوي ، يصلي فيه في الصفوف الأولى ...

وشط به الخيال بعيداً ، يجوب آفاق تلك الأيام الحلوة ، ويستعرض ذكرياته فيها ، تلك الذكريات التي تنفحه دائماً بجمالها وهدوئها وإيناسها . .

ولاحت له صفحة من ماضيه ، قبل ثمانية وعشرين عاماً .. يوم أن وقف في هذا المسجد ، أمام الحجرة النبوية ، وقد عزم على الزواج .. في ذاك اليوم وقف تحت القبة الخضراء ،ولسان حاله يقول :

– لله أنت يا سيدي يا « أبا القاسم » . . فلولا أنك أمرت الشباب بالزواج لما فكرتُ فيه ، ولما أقدمت عليه أبداً . . ولكن ، أنى لي أن أتجرأ على مخالفة ندائك : (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرْج) [1] ...

– لله أنت ياسيدي يارسول الله ... لقد بينتَ أن المعونة الإلهية ، حق للذي يبغي العفاف في زواجه ؛ فجعلته على درجة سواء ، مع المجاهد في سبيل الله ، والرقيق الذي يسعى في الحصول على حريته الغالية ... ألست أنت القائل : (ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتَب [2] الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف ، والمجاهد في سبيل الله) [3] ... وأنى لمثلي أن يستغني عن معونة الله سبحانه ؟؟

– ألا ما أجمل هذه الشريعة السمحة !! وما أروع هذا النظام السماوي الرفيع !! لقد جعلت استكمال بنيان أسرة

---

(١) رواه « البخاري » و « مسلم » .

(٢) المكاتب : هو الرقيق الذي يعمل على أن يعتق نفسه بالمال .

(٣) رواه : « الترمذي » و « النسائي » و « ابن ماجة » .

إسلامية جديدة ، وتحصن العبد المؤمن بالزواج ، تحقيقاً لنصف دينه ، وما عليه إلا أن يستكمل بنيان إسلامه ، بالتقوى والعمل الصالح ... (إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف دينه ، فليتق الله في النصف الباقي)[1] .

ألا ما أبدع هذه الرسالة السماوية الإلهية الخالدة !! هـــذه الرسالة التي عملت على أن يحيا الانسان حيـاة مستقرة منظمة ؛ بعيداً عن الشعور بالفراغ والنقص في المعيشة ... فجعلت المرأة الصالحة ، خير متاع هذه الحياة الدنيا ... (الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة)[2] ...

ألا ما أسمى تلك الآيات ، التي بلغتها عـن رب العالمين ، فكانت أجمل ما يمكن أن يقال في التعبير عن السعادة الزوجية !! قال تعـالى : « **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** »[3] .. « ففي هذه الكلمات القليلة تصوير بارع لعلاقة الجسد وعلاقـــة الروح في آن ، فاللباس أهم شيء ببدن الإنسان ، وهو الستر

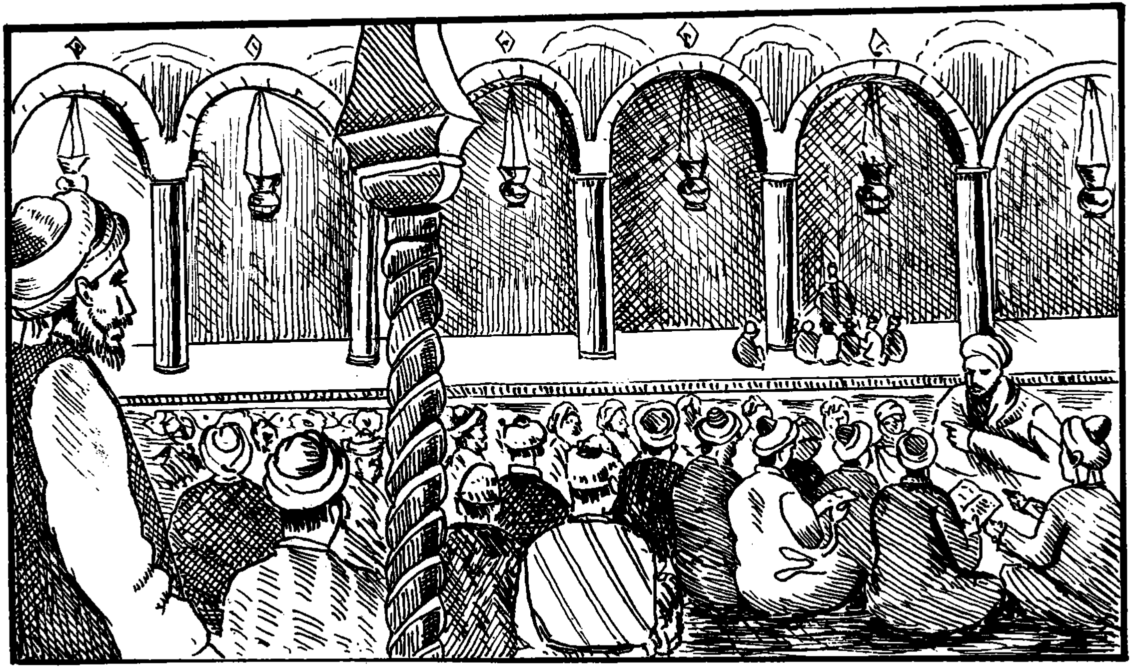
---

(١) رواه « البيهقي »

(٢) رواه « مسلم »

(٣) « سورة البقرة » : الآية ؛ ١٨٧

الذي يستتر به ، وهو في الوقت ذاته مفصل على قده ، لاينقص ولا يزيد .. والرجل والمرأة ألصق شيء بعضهما لبعض ، يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة ، وفي لحظة ينوب كل منهما في الآخر ، فلا تعرف لهما حدود ، وهما أبداً يهفوان إلى هذا الاتصال الوثيق الذي يشبه اتحاد اللباس بلابسه ... ثم هما ستر ، كل واحد للآخر ؛ فهما من الناحية الجسدية ستر وصيانة ، وهما على الدوام ستر روحي ونفسي ، فليس أحد أستر لأحـــد من الزوجين المتآلفين ، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره ، أن ينكشف منها شيء ، فتنهبه الأفواه والعيون . وهما كذلك وقاية تغني كلًا منهما عن الفاحشة وأعمال السوء ، كما يقي الثوبُ لابسه من أذى الهاجرة والزمهرير ... وهما بعد ذلك كاللباس في تفصيله ، مضبوطاً على القـد ... يلبسه صاحبه فيستريح إليه . ويتحرك نشيطاً في محيطه ، ويكتسب به جمالاً وزينة تعجب صاحبها ، وتعجب الناظرين ... فليس أبدع من تصوير هذه المعاني كلها في تشبيه واحد شامل عميق ... وإذا كانت العلاقة بـين الرجل والمرأة وثيقة إلى هذا الحد ، فقد وجب أن يلتقيا ليكون كل منهما لباساً لصاحبه ، يزينه ويكمله ، ويلتصق به للوقايـة



— لله در هذا العالم العلامة ... الذي استقطب كل هؤلاء الناس ، من كبار القوم وصغارهم ... علمائهم ومتعلميهم .

والستر »[1] .

واقترب « فروخ » من الحجرة النبوية ، حتى كاد وجهه يلاصق النافذة المطلة على الروضة النبوية ، وقال :

ـ حقاً ... إنها لرسالة تستطيع أن تضمن السعادة للمجتمع الإنساني كله ، إن هو سار على هداها ... أو لم يقل المولى سبحانه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[2] ??

ـ لقد تغيرت موازين الأمور ، عما كانت عليه في الجاهلية الجهلاء ... فلم تبق مكانة المرأة بمالها ، أو حسبها ، أو جمالها.. بل أصبحت تقوّم بعقيدتها ، بإيمانها ، بدينها ... (تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولدينها ، ولجمالها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك)[3] .

وراح « فروخ » يُعمِل فكره ، حتى يجلو الأسباب التي تدعوه إلى الزواج ، فشرع يخاطب ذاته بقوله .

ـ أما إنني والله ، لا أطلب من زوجتي ، التي أنا مزمع على

---

(١) « الإنسان بين المادية والاسلام » : ص ٢٤٩ .

(٢) « سورة الأنبياء» الآية ـ ١٠٧ ـ

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما . والمراد بعبارة (تربت يداك) : الدعاء بأن يكثر الله ماله .

اختيارها ، أن تكون ذات مال أو حسب أو جمال ... بل إن المطلب الرئيسي لدي ، هو أن تكون ذات دين ... ولا بأس بعد ذلك ، إن كانت ذات مال وحسب وجمال !!

إنني أريد أن تكون زوجي وشريكة عمري ، ذات دين .. إن نظرت إليها سرتني ، وإن غبت عنها حفظتني في عرضي، ومالي ... ولعمري ، هذا خير ما يطلبه الانسان ، في هذه الحياة الدنيا ، بعد تقوى الله !! ألم يقل نبينا الكريم : (ما استفاد المؤمن ، بعد تقوى الله عز وجل ، خيراً له من زوجة صالحة : إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله)[1] .

إنني أريد أن تكون زوجي وشريكة حياتي ، ذات دين ... جديرة بأن تكون أماً لأولادي ... ترضعهم لبان التقوى والصلاح ... وتنشئهم على الإسلام والإيمان ... وتربيهم على الأخلاق القوية والسجايا الحميدة ... حتى يكونوا اللبنة الصالحة في هذا المجتمع الخير ، والجنود البررة ، يعملون على نشر لواء الحق في مشارق الأرض ومغاربها ...

---

(١) رواه « ابن ماجة »

وجال « فروخ » يبصره داخل الحجرة الشريفة ، وكأنما يخاطب إنساناً بداخلها ، وراح يعاهده بقوله :

– وها أنذا يا سيدي يا رسول الله .. أبذل كل ما أستطيع من إمكانات ، لأتخير الفتاة المؤمنة ، استجابة لأمرك الكريم (تخيروا لنطفكم ؛ فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن)[1] .

وها أنذا يا سيدي يا رسول الله ... أقدم على الزواج ، طالباً من المولى سبحانه ، أن يعينني على إنجاب الولد الصالح ...

وإنني إذ أعاهدك – يا شفيع الأنام – على أن أتقيد برسالتك السامية ، في كل أمر من أموري ، صغيرها وكبيرها ... أدعو الله سبحانه أن يختار لي ما فيه الخير ...

والتفت إلى صبره ، يدعو الله عز وجل بقوله :

– اللهم إن كان في هذه الزيجة خير لي ، في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فيسرها لي ، ثم بارك لي فيها ... وإن كنت تعلم أن في هذه الزيجة شراً لي ، في ديني ومعاشي ، وعاقبة

---

(١) رواه : « ابن عساكر » و « ابن عدي » في « الكامل »

أمري ، فاصرفها عني واصرفني عنها ... واقدر لي الخير حيث كان ، ثم أرضني به ...

* * *

وصحا « فروخ » من أحلام اليقظة هذه ، ليجد نفسه بين جم غفير من الناس ، قد تحلقوا في مجلس علم عظيم ، ضم أكابر القوم وساداتها وكبار علمائها ... فأخذته هيبة المجلس ، فلم يدر ماذا يفعل ... ورأى إصغاء الناس إلى الفقيه المتحدث ، وكأنما على رؤوسهم الطير ، فشعر بخشوع كبير ، وتملكته رهبة عظيمة ، ما سبق أن شعر بمثلها قط ... وراح يجيل طرفه في هـذا المجلس ، الذي يملأ العين ... ووقع بصره على العالم المتحدث . .

إنه لا يكاد يستبين ملامح وجهه ... لقد حالت قمة القلنسوة المتدلية على وجهه دون أن يتعرفه ...

– ترى ... لماذا ينكس هذا العالم الجليل رأسه حتى تدلت قمة القلنسوة ، فحالت دون معرفة ملامح وجهه ؟؟

– لكأني به يتعمد تنكيس رأسه !! ولربما كان ذلك

تواضعاً بين يدي حديث رسول الله الذي كان يرويه بأدب عظيم ...

– ومهما يكن من أمر ... فلا بأس علي أن أتقدم الى الأمام قليلاً ، وأصيخ بسمعي إلى هذا الجبل من العلم ... فلقد طال بي البعد عن مجالس العلم وحديث رسول الله !!

وتقدم « فروخ » بضع خطوات إلى الأمام ... وأرهف أذنه يستمع الى المحدّث ، الذي كان يروي أحاديث عن رسول الله ، حفظها عن ظهر قلب ... فإذا هو أمام بحر من العلم يزخر ... لا يكاد يتردد أو يتوكأ على كلمة ...

وتنفتح مغاليق قلبه ، وتبتهج أعماق نفسه ... إنه أمام جبل من التقوى والصلاح ، ينفح الحاضرين بروح منه ، فتمتلىء قلوبهم نوراً ، وكأنما هم بين يدي رسول الله ﷺ ، يوجه إليهم كلماته التي يرويها لهم ذاك العالم الشاب ...

وبلغ الإعجاب من نفس « فروخ » غايته ، حتى إنه بدأ يردد عبارات الثناء والإعجاب ، على غير شعور منه ...

– لله در هذا العالم العلامة ... الذي استقطب كل هؤلاء الناس ، من كبار القوم وصغارهم ... علمائهم ومتعلميهم .

شيوخهم وطلابهم ... فكان بمثابة قطب الرحى الذي يدور حوله كل شيء !!

– لله در ذاك الوالد ؛ الذي أنجب مثل هذا الانسان !!

– ألا ليته كان لي ولد مثل هذا ، أو أقل منه بكثير ... إذن لقرّت عيني ، ومت – إذا ما مت – مرتاح النفس ، قد ادخرت في هذه الدنيا ، ما هو خير لي من الدنيا وما فيها !! وهل هناك خير لى من ولد صالح ، يدعو لي وأنا في الدار الآخرة ؟!!

– حقاً والله ... إن الولد الصالح هو الذخر العظيم للانسان !! ألم يقل النبي ﷺ : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفَع به ، أو ولد صالح يدعو له)[1] .

* * *

وتحسر « فروخ » على ما فاته من مثل هذا الخير الذي

---

(١) رواه « مسلم » وغيره .

تماه ... ولكنه علل نفسه بأن ابنه « ربيعة » ـ الذي رآه بالأمس ـ لا يخلو ـ على ما يرى ـ من مخايل الصلاح ... ولربما صار الى شيء من هذه المنزلة في العلم ؛ فكان قرة عين له !!

ثم ذهب يعلل النفس ، بأنه كان يقضي أيامه تلك في المرابطة والجهاد ...

ـ ولكن أيها أفضل ... الطاعة والعبادة أم الجهاد في سبيل الله ؟؟

ولولا أنه تذكر ذاك الحوار الشعري الذي جرى بين « الفضيل بن عياض » و « عبد الله بن المبارك » لوقع في صراع عنيف ، لا يدري أي الأمرين يفضل ... ولا يدري ما ستؤول إليه راحته النفسية ...

ولذلك راح يستذكر تلك الأبيات ويترنم بطيفها يمر على مخيلته ...

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في أنف امرىء ودخان نار تلهب

★ ★ ★

وانتهى مجلس العلم ، الذي ضم جسم « فروخ » من غير أن يضم عقل « فروخ » ولبه !!

انتهى المجلس ... والناس في واد ... و « فروخ » في واد غيره !!

وأحس « أبو عبد الرحمن » بانتهاء المجلس ، فهب ينصرف مع الناس ...

وأمسك برجل كان يجلس قريباً منه ، وسأله :

ـ من تراه يكون هذا العالم المتحدث ؟؟

فاستغرب الرجل هذا السؤال ، وراح يقول :

ـ أولا تعرفه ؟؟ إنه عالم المدينة ومحدثها ... إنه « فقيه أهل المدينة ... أدرك جماعة من الصحابة رضي الله عنهم »[1]... وأخذ عنهم العلم الغزير !!

إنه العالم الذي لم يبق إنسان لا يعرف فضله وعلمه ...

---

(١) « وفيات الأعيان » : ص ـ ١٨٣ ـ

إنه مفتي المدينة دون منازع[1] !!

فاعتذر إليه « فروخ » بأنه كان غائباً عن المدينة ، منذ ثمانية وعشرين عاماً ...

ولكن عذره هذا لم يُقبل لدى الرجل الذي قال :

ـ وكيف لم تسمع بمثل هذا العالم الجليل ، وصيته ملأ الآفاق ؟؟

ـ لا تؤاخذني ... فإني كنت مشغولاً بالجهاد ، مرابطاً في بلاد خراسان ...

ـ إذن ... الحق معك ... اجلس هنا حتى أحدثك عن هذا الرجل ؛ فإنه لا يليق بمثلك ، ألا يعرف أهل العلم والفضل ...

وانتحى الرجل « بفروخ » زاوية من المسجد ، وأنشأ يقول :

ـ إن هذا العالم الجليل ، الذي رأيته الآن ، هو الذي قال عنه « سوار بن عبد الله » : « ما رأيت أحداً أعلم منه . فقيل

---

(١) هذا مضمون رأي « مصعب الزبيري » : عن « تهذيب التهذيب» جـ - ٣ - ص - ٢٥٧ - و « تذكرة الحفاظ » جـ ١ ص ١٤٩ .

له : ولا الحسن وابن سيرين ؟ فقـــال : ولا الحسن وابن سيرين »[1] .

وأردف يقول :

ـ إنه الرجل الذي « لا تعرف المدينـة ، رجلاً أسخى بما في يديه لصديق أو غيره »[2] ... « لقد أنفق على إخوانه أربعين ألف درهم ، ثم جعل يسأل إخوانه في إخوانه ... فقال أهله : أذهبت مالك وأنت دائب تخلق جاهك ؟ فقال : لا يزال هذا دأبي ودأبهم ، ما وجدت أحداً يعطيني على جاهي »[3] ...

ـ لله در هذا الرجل !!

هكذا قال « فروخ » ... ثم تابع يقول :

ـ ومن عساه يكون ؟؟

وكان الجواب :

ـ إنه تلميذ عدد من الصحابة الكرام وجمعٍ غفير من أجلاء التابعين [4] ...

---

(١) « وفيات الاعيان » ص ١٨٤ و « تهذيب التهذيب » ج ٣ ص ٢٥٨ و « تذكرة الحفاظ » جـ ١ ص ١٤٨ .

(٢) « وفيات الاعيان » ص ١٨٤ .

(٣) « تاريخ بغداد » ج ٨ ص ٤٢٤

(٤) عن « تهذيب التهذيب » ج ٣ ص ٢٥٨ و « تاريخ بغداد » ج ٨ ص ٤٢٠ .

« روى عن أنس بن مالك ، والسائب بن يزيد ، ومحمد ابن يحيى بن حبان ، وسعيد بن المسيب ، والقاسم بن محمد ، وابن أبي ليلى ، والأعرج ، ومكحول ، وحنظلة بن قيس الزرقي ، وعبد الله بن يزيد »[1] .

وما كاد الرجل يلتمس راحة من ترديده لأسماء أساتذة « ربيعة » الذين روى عنهم ، حتى كرر « فروخ » سؤاله عن شخص هذا العالم الجليل ، وبين له شغفه بمعرفة اسمه ... غير أن الرجل لم يبال بسؤاله ، اعتقاداً منه بأن معرفة الصفات أهم بكثير من معرفة الاسماء ، وراح يتابع حديثه ، بايراد طائفة من أسماء العلماء الاعلام ، الذين يحضرون مجالسه ، ينهلون من علمه النمير ، فقال :

ــ أما رأيت ــ يا رجل ــ وفرة عدد العلماء الذين يحضرون هذا المجلس ؟؟

ــ أما رأيت في هذا المجلس « يحيى بن سعيد الانصاري ، وأخاه عبد ربه بن سعيد ، وسليمان التميمي ، ومالك بن أنس ،

(١) « تهذيب التهذيب » جـ ٣ ص ٢٥٨ و « تذكرة الحفاظ » جـ ١ ص ١٤٨ و « ميزان الاعتدال » جـ ٢ ص ٤٤ و « تاريخ بغداد » جـ ٨ ص ٤٢٠ .

والأوزاعي ، وشعبة ، وسفيان الثوري ، وحماد بن سلمة ، والليث بن سعد ، وفليح ، وعبد العزيز الدراوردي ، وسليمان ابن بلال ، وأبا ضمرة ، وإسماعيل بن جعفر ، وغيرهم »[1] ؟؟

ألا ترى إلى أن مجلسه ، يضم ما لا يقل عن أربعين معتماً[2] ، من أهل العلم والفضل ، بالإضافة إلى وجوه المدينة وأكابر أهلها[3] ؟؟

أما سمعت ان « يحيى بن سعيد » قال فيه : « ما رأيت أحداً أفطن منه »[4] ؟؟

وأن « عبيد الله بن عمر » يقول فيه : « هو صاحب

---

(١) عن: « تهذيب التهذيب » ج ٣ ص ٢٥٨ و « تذكرة الحفاظ » ج١ ص ١٤٨ و « تاريخ بغداد » ج ٨ ص ٤٢١ و « ميزان الاعتدال » ج ٢ ص ٤ .

(٢) « تاريخ بغداد » ج ٨ ص ٤٢١ و « تهذيب التهذيب » ج ٣ ص ٢٥٨ .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) « تذكرة الحفاظ » ج ١ ص ١٤٨ و (تهذيب التهذيب) ج ٣ ص ٢٥٨ .

معضلاتنا وأعلمنا وأفضلنا »[1] ؟؟

ومالت نبرات صوت الرجل إلى الهدوء ؛ إيذاناً بقرب انتهاء حديثه الذي طال ؛ وتابع يقول :

ـ ولا بأس بأن أقول لك : إن هذا الرجل « مكث دهراً طويلاً ـ كما يقولون ـ عابداً ، يصلي الليل والنهار ، إلى أن جالس القوم ، فنطق بلب وعقل »[2] ..

إنه الإمام الحافظ ، الفقيه المجتهد ، البصير بالرأي [3] ..

إنه « ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن » ... ولربما سمعت بأبيه هناك في خراسان ... إنه يدعى « فروخاً » ... ألا تعرفه يا أخي ؟؟

والتفت الرجل إلى من يحدثه ؛ ينتظر منه جواباً على ما سأل ... فإذا هو يجده ، في حالة من الارتباك شديدة ...

---

(١) (تذكرة الحفاظ) جـ ١ ص ١٤٩ و (تهذيب التهذيب) جـ ٣ ص ٢٥٨ .

(٢) « تذكرة الحفاظ » جـ ١ ص ١٤٨

(٣) عن المرجع نفسه .

إنه لايدري ـ والله ـ ما حل به ...

– ترى ... هل هو منزعج ؟؟

إن دموعه التي انهمرت غزيرة على خديه ؛ تدل على شيء من هذا !!

– هل هو فرح ؟؟

إن أسارير وجهه ، لتعبر عن شيء من الفرح !!

– هل هو خائف ??

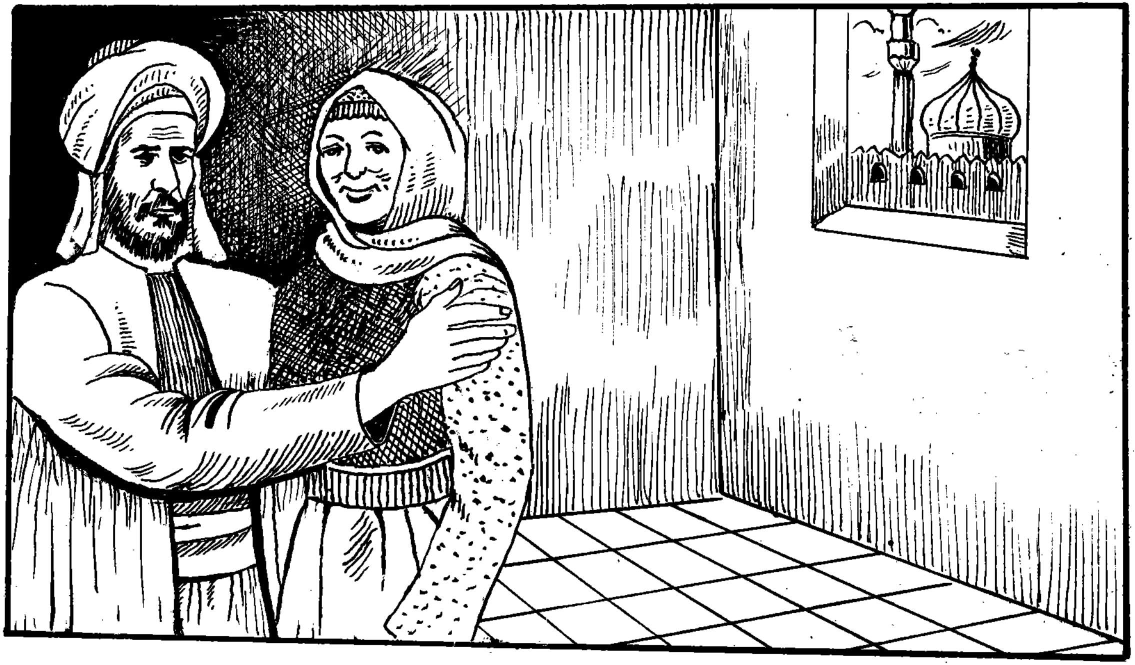
إن نفسه المتقطع ، وجسمه المرتعش ، يشيران إلى شيء من هذا !!

ـ هل هو مريض ??

إن تهالك جسده ، وتجلده في النهوض عندما هم بالانصراف ، يعبران عن مرض عضال ، ينهش في جسد هذا الشيخ العجوز !!

والتفت الرجل إلى جليسه الذي عزم على الانصراف ، وعاجله بقوله :

ـ ماذا بك يا رجل ؟؟ ماذا بك يارجل ?? سألتك بالله أن تخبرني !!



فأنت المدرسة الحقيقية ... مدرسة العلماء الأتقياء ... فأنت أم ... لا كالأمهات !!

- لاشيء ... لاشيء ... ولكن ...

وترقرت الدمعة في عين « فروخ » وتحشرج صوته ، فلم يبق قادراً على متابعة الحديث ...

غير أن الرجل لم يفهم شيئاً ... فصاح يقول :

- ولكن ماذا ؟؟ سألتك بالله إلا ماخبرتني !!

ورأى « فروخ » أن الجواب قد صار أمراً لازماً فتحامل على نفسه وقال :

- إنني ... أنا ...

واختنق الصوت ...

وأجهش « فروخ » بالبكاء ... ولم يبق قادراً على متابعة الحديث ... ولم يجد خيراً من الانصراف ...

وخرج من المسجد ، يبغي منزله ...

وقبع محدثه في مكانه ... لايدري ما يفعل ...

لقد انتابه شعور شديد من الحيرة والارتباك ...

إنه لايدري هل اقترف ذنباً بحق هـذا الرجل ؟! أو أنه آذاه بكلمة أو أي تصرف ؟!

لا هذا ولا ذاك !!

إذن لابد إلا أن « فروخاً » كان صديقاً حميماً لهذا الرجل ، ولربما يكون قد استشهد إلى جواره ... وجئت أنا اليوم أذكره به ، فاضطرب لذكراه أيما اضطراب !!

هكذا حلل الرجل الموقف ، محملًا نفسه المسؤولية فيما ارتكبه من خطأ ، ولكن عذره ملحوظ مع كل ذلك ... إلا أنه عذر لاينفي عنه المسؤولية مطلقاً ... فراح يلوم نفسه بقوله :

ـ كيف تذكره بصديقه « فروخ » ولربما يكون قد استشهد إلى جواره ، وهو لايزال محزوناً عليه ؟!

وانهمرت دمعة من عين الرجل وهو يقول :

ـ رحمك الله يا « فروخ » ...

وطيب الله ثراك يا أبا عبد الرحمن ... يامن خلفت لنا مثل هذا العالم الفذ ..

نم ، في مثواك الأخير ، قرير العين هانيها .. فإنك ـ والله ـ قد خلفت لنفسك في هذه الدنيا ، خير مايمكن أن يخلفه إنسان !!

* * *

ودخل « فروخ » داره مسرعاً ، يريد أن يزف البشرى إلى « أم ربيعة » وصاح من مدخل المنزل يقول :

ـ يا « أم ربيعة » ... يا « أم ربيعة » ... بشراك !!

ـ وماذاك يا « أبا عبد الرحمن » ؟؟

ـ بشراك يا « أم ربيعة » !!

وجلس « فروخ » على مقعد في فناء المنزل ، وتمدد مستسلماً لراحة عميقة يتطلبها بعد إجهاد ... وكأنه يطرح بذلك ، كل مافي نفسه من أثقال وهموم ... ثم أردف يقول :

ـ لقد حصلنا ـ يا أم ربيعة ـ على ماهو خير لنا من الدنيا وما فيها ...

ـ وما ذاك يا أبا عبد الرحمن ؟؟

ـ ولد صالح ، يدعو لنا في أخريات أيامنا ... وياله من قمة من قمم الصلاح ، وذروة من ذرا التقوى والعلم ..

أما سمعت بما كان من ولدنا « ربيعة » ؟؟

« لقد رفع الله ابني »[1] .. فوق ما كنت أتوقع !!

---

(١) « وفيات الأعيان » : ص ١٨٣

إنه اليوم العالم العلامة ، الذي ملأ صيته الآفاق !!

شكراً لله على مثل هذا الولد ... فوالله إنه خير لنا من الدنيا وما فيها !!

* * *

.ووجدت الأم الفرصة سانحة ، لتخبر زوجها بالخبر الذي كانت تفكر طويلاً ، في أن توجد له المناخ الملائم ... وهاهي ذي تجد الفرصة سانحة ، تتطلب من يتصيدها ، وقد قيل : (إذا هبت رياحك فاغتنمها) ... ولا عليها إلا أن تسارع إلى إطلاق سهمها المهيأ .. فأنشأت تقول :

- يا أبا عبد الرحمن... « أيهما أحب إليك... ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي ترى ابنك عليه »[1] ??

وعلى الفور ، أجاب الأب ، بما يعبر عما في أعماق أعماق نفسه ، فقال :

---

(١) « وفيات الأعيان » ص ١٨٣

- « لا والله ... بل هذا »[1] !!

ثم أردف يؤكد ذلك بقوله :

- وايم الحق ... إن ما أرى ابني عليه الآن خير لي من الدنيا وما فيها ...

وكان أن وقع السهم على الطريدة ، قبل أن تفلت من بين يدي « أم ربيعة » فقالت :

« لقد أنفقتُ المال كله عليه[1] » ثلاثين ألف دينار ... لم يبق منها شيء ...

وقرت « أم ربيعة » عيناً بجرح طريدتها يدمى ، عندما سمعت أبا عبد الرحمن يقول :

« فوالله ماضيعته »[1]!! وجزاك الله عني خير الجزاء ... ومثلك كانت النساء !!

ومثلك كانت الأمهات !!

ألا ليت كل الأمهـات ، كانت مثلك ، في الفضل والعقل إذن لـكان لنا جيل من أعظم الأجيال .. ولا ستطعنا أن نتابـع مسيرة أمتنـــا ، فنطاول الجوزاء ، ونناطح السحاب ، علواً وارتفاعاً !!

---

(١) « وفيات الأعيان » : ص ١٨٣

فالأمة لاتعظم بكثرة عدد ...

ولا تعظم بالسلاح المكدس ...

ولا تعظم باتساع رقعة بلادها ...

بل إنما تعظم بعظمة أبنائها ... بعظمة قوادها وعلمائها !!

والأم هي المدرسة التي تربي الجيل الصاعد وتنشئه ... فلتنظر كيف تريد أن تنحو بالأمة ؟؟!

الأم هي المصنع الذي يصنع الأمة بكاملهـا . فلتنظر إلى أين تريد أن تتجه بها ؟؟!

وراح « فروخ » يشد على يد « أم ربيعة » وهو يقول :

- جزاك الله عنا كل خير يا « أم ربيعة » ..

فأنت المدرسة الحقيقية ... مدرسة العلماء الأتقياء ...

وأنت المصنع الحقيقي ... مصنع الأبطال العظماء ...

أنت القدوة المثلى لكل أم ، ولكل فتاة ...

جزاك الله عنا كل خير يا « أم ربيعة » ..

فإن عملك هذا لن يضيع عند الله ...

ولن يضيع عند العباد ...

فأنت أم ... لا كالأمهات !!

(أمُ سليم)

الزوجة المثالية ... والأم المثالية

شخص ببصره إلى السماء ... وفتر عن الحركة ... ثم ألوى برقبته ... وهو لا يكاد يقوى ، على النهوض برأسه الذي أسند إلى الوسادة اللينة ...

وتحشرج النفس ... حتى إن صوت زفراته ، ليكاد يقطع قلب الأم التي سارعت في ضمه بحنان إلى صدرها ، تذرف الدموع الغزيرة !!

وهي لا تدري ما تصنع ...

لقد شاءت الأقدار ، أن تكون وحيدة في المنزل ، في هذه الأمسية العصيبة .. ليس أمامها من يخفف عنها هول ما يحدث !!

نعم ... لقد كان طفلها الصغير هذا ، مريضاً منذ أيام ...
واشتد به المرض ، منذ ثلاث ليال ...

ولكن في صبيحة هذا اليوم ، كان يبدو و كأنما هو قد تحسن تحسناً ملحوظاً ؛ حتى إن والده انصرف إلى عمله ، وهو أقل قلقاً على ولده !!

فماذا تفعل ؟؟ لقد شاءت الأقدار ، أن تفجعها بابنها هذا !!

ماذا يكون موقفها من والده ، عندما يأتي في المساء ، ويسأل أول ما يسأل عن الطفل الصغير ؟؟

ماذا تستطيع أن تفعل ، لتحمي ابنها من المصير المحتوم ، الذي تراه يحوّم حوله ؛ حتى إنه ليبدو واضحاً لكل من ينظر إلى حاله ؟

لقد جادت بكل ما لديها من إمكانات ؛ لترد عن ولدها غائلة الموت !!

ولكنها - ويا للأسف - لم تستطع أن تفعل شيئاً ...

وها هي ذي ترى ابنها فريسة الآلام المبرحة ، فلا تقوى على فعل شيء ... أي شيء كان !!

إنها لتود صادقة ، لو تجود بمهجتها ؛ لتحافظ على مهجته !!

إن قلبها ليتمزق غيظاً ؛ لأنها لا تملك أن يقتطع من عمرها ، ليضاف إلى عمر هذا الطفل الصغير ... ولكن هيهات هيهات ... فالأعمار بيد الله !!

إذاً ما العمل ؟؟

هل تبقى صامتة ، لا تستغيث ولا تستجير ، وكأنما قد تقطعت بها حبال الأمل ، التي هي أوهى من خيط عنكبوت ؟؟

أو إنها تخلد إلى الهدوء والاستسلام ، وابنها يعاني من الآلام التي تنهش في جسمه الرقيق الذاوي ؟؟

وماذا تستطيع أن تفعل ، وهي قد بذلت كل ما وسعها بذله ؟؟

وماذا يجديها نفعاً من تستغيث به ، وهي قد فعلت جميع ما نصحت به ؛ حتى إنها لا تجد بعد ذلك نصحاً لناصح ، أو رأياً لطبيب ؟!

إذن هل تبقى صامتة ، وهي تشهد هذا المشهد المفزع ؟؟

لقد أغمضت عينيها الدامعتين ... وضمت ابنها إلى صدرها لحظات ...

وانقطعت الحشرجة ...

وهدأ الطفل الذي كان يتضور ألماً ...

وفتحت الأم عينيها ، لترى ما حل بابنها ، قرة عينها ...

وأطلقت يديهـــا قليلاً ، لتبعد وجهه عن صدرها الذي التصق به ...

فإذا هي ترى ، من جمـال أهداب عينيه ، ما لم تره من قبل ... لقد فتح الطفل عينيه ... واسترخت أهدابه ؛ فبدت أطول مما كانت عليه ...

واستغرقت لحظات ، تمتع ناظريها ، بسحر أهداب عينيه ، اللتين فتنتاها أكثر من ذي قبل ...

غير أنها لم تلبث أن صحت من سكرتها هذه ، فزعة ... ذلك أنهـا لحظت الجمود في العينين الواسعتين ... فخشيت أن يكون ما تكرهه هي ، وتكرهه كل أم ...

فأسرعت تجيل نظراتها الخاطفة في جميـع أنحاء طفلهـا ... لعلها تجد علامة تدعو إلى الاطمئنان ...

ولكن ... ويا لخيبة أملها ... إن الاطمئنان الذي غادر فؤادها ، لم يكن هناك ما يدعوه إلى العودة !!

لقد حل قضاء الله المحتوم !!

وانتهى الأجل المقطوع !!

وأصيبت الأم بطفلها ، وهو بين يديها !!

* * *

وتذكرت « أم سُليم » العهد الذي قطعته لرسول الله ﷺ مع نسوة من الأنصار ، عندما بايعنه على الإسلام ... فأنشأت تخاطب نفسها - وهي في حالة من الذهول - قائلة :

- « أخذ علينا رسول الله ﷺ مع البيعة ، ألا ننوح »[1]

ثم التفتت تخاطب نفسها :

- فهل أراني أخون عهدي مع رسول الله ﷺ ؟؟

وشددت على نبراتها ، وهي تشجع نفسها بقولها :

- الصبرَ الصبرَ يا أم سُليم ... الصبر يا أم سليم ؛ فأنت المرأة التي تعتزين بإسلامك ... وهل يكون الصبر إلا عند الصدمة الأولى ؟؟

ألم تسمعي رسول الله ﷺ يقول : (الصبر عند الصدمة الأولى)[2] ؟؟

---

(١) رواه « مسلم » والنوح : هو البكاء بصياح وعويل وجزع .

(٢) رواه « البخاري » .

وما كادت « أم سليم » تذكر ذلك ، حتى قررت ، أن تصبر في مواجهة هذه الصدمة العنيفة ، التي هزت كيانها ...

وامتنعت عن الصياح والعويل ...

وترقرقت في مؤقها دمعة جاهدت أن تحبسها ؛ لعلها تفلح في كبح جماح هذه العين التي تعجز عن الصبر والتصابر ... ولولا أنها تذكرت حديث رسول الله ﷺ : (القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا يُغضَب الرب) [1] لما فسحت المجال ، لهذه الدمعة الحبيسة ، أن تخرج من المؤق ...

وسالت دمعة سخينة ... دمعة أم مفجوعة بولدها ... دمعة أم صابرة ، لم تجد ما تعبر به عن فرط الأسى ، إلا هذه الدمعة المهراقة !!

غير أن هذه الدمعة المنسكبة ، لم تكد تسيل على خدها ، حتى حركت نوازع التجلد لديها ، فكفكفت الدموع ...

وقامت تسجي ولدها ، على بساط كان قريباً منها ...

وألقت عليه نظرة أخيرة ، وغطته ببرد أخضر ، حتى حجبت وجهه ...

---

(١) رواه « ابن حبان » و « الحاكم »

وأغلقت عليه الباب ... ودسّت المفتاح في جيبها ...
وجلست في فناء دارها ، تفكر في أمرها وأمر زوجها !!

• • •

ولم تكد تخلو بنفسها ، حتى بدأت مختلف المنازع ، تتجاذبها من اتجاهات شتى ...

فهي تارة ، ترى نفسها خائرة القوى ، أمام هذا المصاب الجلل ...

وهي تارة أخرى ، تجد القدرة على التجلد والتصابر ، طمعاً بثواب الله وخير جزائه ... قال تعالى : « **أولئك يؤتَوْن أجرهم مرتين بما صبروا** »[1] .

وأقبلت الأفكار على ذهنها ، أمواجاً إثر أمواج ، ولسانها ينطق - في وحدتها هذه - ببعض ما كان يتردد عليها من تلك الأفكار :

- لله أنتَ يا ولدي ... فلكم قاسيت من الآلام !!

- لله أنت يا مهجة روحي ... فلقد بقيت تذوي ، كما يذوي القضيب من الرند ... حتى صرت شبحاً بلا روح !!

---

(١) « سورة القصص » : الآية - ٥٤ -.

- لله أنت يافلذة كبدي ... لقد اختارتك يد القدرة الإلهية ، فليس لنا إلا أن نستسلم ، ونقول : إنا لله ، وإنا إليه راجعون !!

ولا تكاد « أم سليم » تهدأ قليلاً ، حتى تثور في مخيلتها صورة مصابها الأليم فتنتفض قائلة :

- أين أنا من السعادة ، التي كانت تلوح لي ، في قسمات وجهك الوضاء ؟؟

- أين أنا من إشراقة الدنيا ، التي كانت تبدو لي ، في ابتسامتك الحلوة ؛ تلك الابتسامة البريئة ، التي تدل على صفاء نفس ، وسلامة طوية ؟؟

- أين أنا من الراحة الكبرى ، التي ما كنت أجد شيئاً منها ، إلا بعد أن أعمل طويلاً في تيسير الراحة لك ؟؟

- أين أنا من جمال الكون ، الذي كنت ألحظه في عينيك السوداوين ؟؟

وأطلقت زفرة ، خرجت من أعماق صدرها الحزين ، وقالت :

- آه يا « طلحة » ... لقد اسودت الدنيا في عيني بعدك !!

- لقد أظلم كل شيء في الوجود ، بعد إذ فقدت الدنيا بريقها في عيني !!

- وها هي دي الأحزان ، تنهش في كبدي ، فلا أقوى على منعها !!

والتفتت « أم سليم » تشد من عزائمها وهي تقول :

- تجلدي يا « أم سليم » ولا تجزعي ... فأنت التي شاركت في الغزوات ... تخدمين رسول الله ... وتضمدين الجرحى ..

كيف تتخاذلين اليوم ، وأنت التي عاهدت رسول الله ﷺ !

كيف تفرين من الصبر ؟؟ إن البطولة الحقيقية ، لاتتجلى في إنسان ، إلا إذا كان ممن يتمالكون أنفسهم ، وقت الملمات النوائب !!

ألم يقل رسول الله ﷺ : (ليس الشديد من غلب الناس ، إنما الشديد من غلب نفسه) (١)

غير أنها أدركت ، أن ما بها من حزن شديد ، لاتملك أن تطرده ... فما في القلب ، لايغيّره ، إلا مقلّب القلوب ... من يملك القلوب بين أصبعين من أصابعه ... أما الإنسان ، فانه لايدرك من ذلك شيئاً ... ولذلك التفتت تجيب نفسها بقولها :

---

(١) رواه « ابن حبان » في صحيحه

-إني وإن استطعت أن أتجلد ، وأتمسك بأذيال الصبر ، فلقد وقفت عاجزة ، أمام جحافل الأحزان ، التي تزحف على فؤادي الأعزل ، كجناح الليل البهيم الأليل ، فلا أستطيع أن أمنعه منها !!

- ولكن ... لا بأس بذلك ... فإني راضية بقضاء ربي . إنها لحكمة إلهية ، ماندري لها سبباً ...

حقاً ... إننا لو اطلعنا على الغيب لاخترنا الواقع !!

- ألم يقل النبي الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه : (عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ؛ وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له)[1] .

إنني لم أوتَ علم الغيب ... ولكن ماوقع هو الخير على كل حال ، وإن كنت أجهل فيه وجه الخير ...

وانتفضت الأم ... وكأنها شعرت بهزة عنيفة ، تسيطر على مجامع نفسها ، فغرست فيها ، رداً عنيفاً على استسلامها ذاك ؛ حتى إنها لتكاد تلحظ صوتاً عنيفاً ، يصك أذنيها بقوله :

---

(١) رواه « مسلم » .

- لا ... بل كيف يكون موت ولدي « طلحة » خيراً !!
إنه « طلحة » ... إنه ولدي وفلذة كبدي !!
آه ... أحس بكبدى تتقطع !!

غير أن العقل لم يلبث أن استعاد سيطرتــــه على العواطف الجامحة ، فأنشأت تقول :

- ولكن ... ما الذي يرد ولدي إلي !!

لقد مات « طلحة » ... مات وانتهى ... وليس هناك من قوة ، تستطيـع أن ترده إلي ... فماذا ينفع النحيب والعويل !!

ليس لنا إلا أن نستسلم لقضاء الله وقدره « **وكان أَمر الله قدراً مقدوراً** »[1] .

وصمتت « أم سليم » قليلاً ... وراحت تصيـخ بسمعها إلى أعماق نفسها ، لتسمع صدى الاستسلام هذا ؛ وكأنما كان هناك إنسان ، يقول بصوت هادىء رزين :

- اللهم أجرني في مصيبتي ، وعوضني خيراً منها ...

---

(١) « سورة الأحزاب » الآية - ٣٨ -

واستطاع ذلك العقل الإسلامي الراجح ؛ أن يتحكم بتلك العواطف المتأججة ، فيحولها إلى عواطف مستسلمة ، راضية كل الرضى ، بعد إذ فقدت الأسباب ، فإذا هذه الأم المفجوعة ، تعرب عن الرضى والسرور ، لما أصاب ولدها فتقول :

ـ ألا ما أحلى هذه الساعة ، التي أنت فيها يا « طلحة » !! إنك الآن ترتع في النعيم المقيم ... قـــد تخلصت من آلامك وأوجاعك كلها !!

ـ وتركت أمك ثكلى ، لاتجد ما ترقأ به جرحها الدامي !!

ـ لا ... بل لربما كان صبري ، على ما أعانيه من آلام الفراق سبباً في أن أفوز برضى الله !! وكيف لا اطمع بفضل الله ، والنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام ، يقـــول : (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حزن ، ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه) [1] .

ـ بل إنني آمل ـ بفضل الله ـ أن يجعل هذا الطفل الصغير

---

(١) رواه « البخاري » و « مسلم » . النصب : التعب . الوصب : المرض .

فَرَطاً [1] لي في الجنة ... الم يقل رسول الله ﷺ : (من كان له فَرَطان من امتي ادخله الله بهما الجنة) ؛ فقالت له السيدة عائشة : فمن كان له فرط ؟ فقال : (ومن كان له فرط ياموفّقة) [2] .

- ما أجمل بشراك ، ياحبيبي ، يارسول الله !! تلك البشرى التي تزفها إلى كل من يفقد ولداً من أولاده ، فتخاطبه بقولك : (الا تحب ، ان لاتأتي باباً من ابواب الجنـــة ، إلا وجدته ينتظرك !) [3] .

- والله إن هذه البشرى ، لتشغلني عن مصابي ، وتجعلني

---

(١) الفرط : هو الولد الصغير الذي لم يدرك .

(٢) رواه « الترمذي » .

(٣) عن « قرة بن إياس » - رضي الله عنه - أن رجلا كان يأتي النبي (ص) ومعه ابن له ، فقال النبي (ص) : تحبه ؟ قال : نعم يارسول الله ، أحبك الله كما أحبه ، ففقده النبي (ص) فقال : مافعل فلان ابن فلان ؟ قالوا : يارسول الله مات ، فقال النبي (ص) لأبيه : ألا تحب أن لاتأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك ؟ فقـال رجل : يارسول الله ، أله خاصة أم لكلنا ؟ قال : بل لكلكم .
(رواه أحمد والنسائي وابن حبان)

أفرح بولدي ، نزيل الجنان ... ولدي الذي سيجرني إلى الجنة !'

ولكأني بك ـ ياطلحة ـ تقف غداً على باب الجنة ، فيقال لك : ادخل الجنة ، فتقول : حتى يدخل أبواي ، فيقال لك : ادخل الجنة أنت وأبواك [1] .

وتخيلت « أم سليم » ولدها نائما أمامها ... يسبح في بحر من الهدوء والراحة التامة ... فانشأت تخاطبه بقولها :

ـ « طلحة » !! « طلحة » !!!نم في أمان الله ياولدي ... نم نومة طويلة ... فإنك اليوم في عهد الله ورعايته ...

ـ « طلحة » !! نم تلك النومة التي لا ألم معها ، ولا تعب ، ولا وصب .

ـ نم يا « طلحة » ... فإن هذه الدنيا ليس فيها إلا الهم

---

(١) روى الإمام « أحمد » عن « أم سليم » أم « أنس بن مالك » ـ رضي الله تعالى عنها ـ أنها سمعت رسول الله (ص) يقول :(ما من مسلمين يموت بينها ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلها الله الجنة ، بفضل رحمته إيام) وزاد « النسائي » في رواية أخرى أنه (يقال لهم : ادخلوا الجنة ، فيقولون ، حتى تدخل آباؤنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم) .

والحزن ... ولقد رحمك الله عندما اختار لك ، أن تنجو من الهموم والأحزان !!

ـ نم يا « طلحة » ... فإن هذه الدنيا دار شقاء وتعب .. لايجد فيها المؤمن طعما للراحة !! ألم يقل النبي الكريم : (لاراحة لمؤمن دون لقاء ربه) [1] ??

ـ نم يا ولدي ... فإنك قد بصرت بالراحة الكبرى ، في جوار رب العالمين . .

ـ هنيئاً لك يا « طلحة » !! هنيئاً لك يامن سكنت فسيح الجنان !!

ورفعت يديها إلى السماء متضرعة :

ـ أعانني الله على الصبر في هذه الحياة بعدك ..

وكان الله في عون « أبي طلحة » ... فإني لا أدري ما سيكون موقفه ، عندما يأتي ويراك مسجى ... جسداً بلا روح !!

● ● ●

وانصرف ذهن الأم إلى التفكير في أمر « أبي طلحة » زيد ابن سهل الأنصاري » ... وراحت تفكر في فداحة ما سيجده

---

(١) « المقاصد الحسنة » للسخاوي .

من مصاب ، عندما يأتي في المساء :

- إنه قد ترك ولده ، على شيء كبير من التحسن في صحته .. فغادره وهو مطمئن البال عليه !!

- ألا ليته لم يتركه ... أو ياليت صحة هذا الولد ، لم تتحسن قبل أن ينصرف أبوه !!

- ما أصعب أن يفاجأ الأب بالأمر الواقع !! « لقد كان أبو طلحة يحبه حباً شديداً »[1] حتى إنه « تضعضع لمرضه » .

وذهبت « أم سليم » تفكر في أمر يخفف عن زوجها أثر المصاب ، وتجعله يستسلم لقضاء الله راضياً مختاراً ... لعله يكسب «الصبر عند الصدمة الأولى » ... فيفوز بالأجر العظيم عند الله !!

وطال بها التفكير ... إلى أن وصلت إلى أمر مقنع ... أعجبها ... وصممت على تنفيذه .

* * *

وما كاد العشاء يؤذن ، في مسجد رسول الله ﷺ ، حتى يتلهف « أبو طلحة » للصلاة عاجلا ، ويرغب في الانصراف إلى البيت ...

---

(١) رواه : « الطيالسي » .

وما كان له أن يرغب في الانصراف من مجلس رسول الله ، وهو الصحابي الذي باع نفسه لله ؟!

إنه واحد من أولئك المسلمين الأوائل ، الذين بايعوا رسول الله ، على أن يفدوه بأموالهم وأنفسهم ... إنه الرجل الذي لازم رسول الله ، في حله وترحاله ؛ وشهد معه بدراً والمشاهد كلها[1] .

غير أن شعوراً ما غامضاً ، كان يدفعه إلى أن يعجل في العودة إلى منزله ...

إنه لايدري ما الدافع ... لقد ترك ولده في منزله ، على حالة تدعو القلب إلى الاطمئنان !! لقد بدأ ولده بالتحسن ، بعد المرض الشديد ، الذي ألمّ به فأنهك جسمه الضعيف !!

ومهما يكن من أمر ، فلقد انقضت الصلاة ، وهو على أحر من الجمر ... وانصرف رسول الله إلى منزله ...

وأسرع « أبو طلحة » إلى منزله ... لايبغي إلا الاطمئنان على ولده ... وأن يمتع ناظريه برأى وحيده « طلحة » ... إنه لتواق إلى أن يضمه ضمة ، تُذهب عن نفسه كل ماعلق بها من هموم وأسقام ...

* * *

---

(١) « تهذيب التهذيب » ج ٣ ص ٤١٤

ودخل « أبو طلحة » داره ... فإذا هو يجد زوجته ، وقد لبست أحسن اللباس ، وتزينت بأجمل زينة ، وتحلت بأبهى مالديها من حلي !!

واستغرب منها هذا الأمر ، وهو الذي لم يرها تبتسم ، منذ أن مرض ولدها !!

ولكنه لم يجد فرصة ، ليستفسر منها عن السبب ؛ فهو اليوم مشغول في التفكير في هذا الأمر العارض الذي استحوذ على قلبه .. إن حالة طفله تشغل باله ، وتسيطر على خالص تفكيره ... ولذلك سارع يبادرها بالسؤال :

- كيف حال ولدنا « طلحة » ؟؟

- « ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة »[١] .

هكذا قالت « أم طلحة » وهي تتظاهر بهدوء ، كان في الحقيقة أقرب إلى التصنع ... ثم تابعت تقول :

- « وأرجو أن يكون قد استراح »[٢] !!

---

(١) رواه : « الطيالسي » .

(٢) رواه : « أحمد » .

وأردفت حديثها هذا بابتسامة عريضة ، اجتذبت الزوج .. ثم تابعت تقول بنبرات صوت رزين :

- لقد نام نومة ما نام مثلها قط !

فارتاح لهذا فؤاد الأب ، وود لو أنه يراه ... فقال ، وهو يتجه إلى غرفته :

- أين هو ؟؟ إنني تواق إلى رؤيته !

- اخفض صوتك يا رجل ... إنه نائم ... دعه في نومه .. فإنه - والله - ما وجد طعم هذا النوم المريح ، منذ أمد طويل !

فتوقف « أبو طلحة » عن فتح باب الغرفة ... وعاد أدراجه إلى غرفة أخرى مجاورة ... وفتح الباب ... فإذا طعام العشاء مهيأ على أحسن ما يرام !

فثارت شاهيته للطعام ... بعد أن انعدمت أياماً طويلة !

وكيف لا تتحرك الشاهية اليوم ، وهو قد أمتع ناظريه في النهار ، بمرأى الغلام ، تتحسن صحته ! ثم ها هو ذا يرى وجه الأم في المساء ، يشرق بابتسامة عريضة ، أدخلت السرور إلى أعماق نفسه ! وها هي ذي الآن ، تجلس قبالته على المائدة ، وقد لبست أجمل الثياب ، وتحلت بأنفس ما عندها من حلي !

وملأ الأب بطنه من طعام ...

واسترخت أوصال جسمه ... فاضطجع على أريكة كانت أمامه ...

• • •

وما كادت عين الأب تطبق جفونها ، حتى بدأت نوازع القلق تعود إلى ساحة شعوره ، لتنغص عليه هدوءه ..

أفكار مزعجة شتى كانت تراود مخيلته ... كلما حاول دفعها من جهة ، شهد لها هجوماً كاسحاً من جهات أخرى عديدة ...

ولم تلبث تلك المزعجات أن استولت ثانية على مجامع قلبه ... فلم يطق عليها صبراً ... فهب قائماً يريد أن يتجه إلى غرفة ولده ؛ ليمتع ناظريه بما يكفل له أن يطرد تلك الهواجس المريبة !!

غير أن « أم سليم » التي كانت له بالمرصاد ، سألته عن وجهته قائلة :

- إلى أين يا أبا طلحة ؟؟

- إلى غرفة ولدي ... فإني أريد أن أكحل عيني بنظرة ألقيها عليه !

ـ إنه نائم يا أبا طلحـة ... دعه في نومه ... فإنه والله ما شهد مثل هذا النوم قط !

ـ أو لا أستطيـع أن أنظر إليه يا « أم سُليم » ؟!

ـ أو لا تصدقني يا « أبا طلحة » ؟!

ـ بلى ... ولكن قلبي لا يطاوعني ...

ـ إني أعهدك رجلاً عاقلاً ... لا تدع عاطفتك تتحكم بك ...

ـ حق ما تقولين يا « أم سليم » ... ولكن ...

ـ ولكن ماذا ؟؟ عد إلى نومك .. ودع طفلك في هدوئه ...

وعاد « أبو طلحة » أدراجه إلى غرفته ...

وقامت الزوجة ... فتطيبت ... واقتربت من زوجها في تلك الليلة ... تملأ عليه نفسه بنفسها ... حتى لا تدع فرصـة للهواجس أن تتملكه فتقلقه !!

وأصبح الزوجان يغتسلان لصلاة الصبح ...

وقبل أن يهيىء « أبو طلحة » نفســـه للصلاة ، قالت له « أم سليم » :

ـ أوما سمعت بما كان من جيران لنا بالأمس !

ـ وماذا كان منهم يا أم سليم !

- لقد استعاروا متاعاً من جيرانهم .. وعندما أتى أصحاب المتاع يطلبون عاريتهم منعوهم منها !

- بئس - والله - ما صنعوا « **هـــل جزاء الإحسان إلا الإحسان** »[1] ؟؟

وأردف « أبو طلحة » يقول ، وقد اعتلى وجهه أمارات الاستنكار الشديد :

- متى كان المستعير ، يمنع صاحب العارية ، من الوصول إلى حقه !

وبلهجة هادئة متزنة ، قالت « أم سليم » :

- « إن الله عز وجل ... كان أعارك ابنك عارية ... ثم قبضه إليه ... فاحتسِب واصبر »[2] !

ولم يصدق « أبو طلحة » ما يسمعه ... وظن نفسه في منام ... فراح يهز رأسه ، ويفتح عينيه محلقاً : ولما وجـــد نفسه في يقظة ، أقبل على زوجته يسألها مشدوهاً :

- ماذا تقولين يا « أم سليم » ؟ !

---

(١) «سورة الرحمن» : الآية - ٦٠ -
(٢) رواه « الطيالسي » .

فعادت النبرات الهادئة المتزنة ، تتردد على سمعه بقولها :

- إن ابنك هذا عارية الله عندك ... وقد استرد صاحب العارية عاريته ... فهل تجد لك سبيلاً إلا الصبر ؟

وذهبت تتلو عليه قوله تعالى :

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون »[1] .

واستسلم « أبو طلحة » ... وأنشأ يقول :

- إنا لله ... وإنا إليه راجعون !

الحمد لله على كل حال ... الحمد لله الذي لا يُحمَد على مكروه سواه !

ثم التفت إلى زوجته ، يستعلم منها خبر وفاة ابنه ، فقال :

- ومتى كان ذلك يا « أم سُليم » ؟

وسمعها تجيب بقولها :

---

(١) « سورة البقرة » : الآية - ١٥٥ - ١٥٧ .

- في مساء الأمس !

غير أنه ما كاد يسمع ذلك ، حتى اعترته حِـــدة عنيفة ، ظهرت آثارها على نبرات صوته وهو يقول :

- ولماذا لم تخبريني منذ المساء ؟

لقد تركتني أتصرف ، طوال الليـل ، وكأن ابناً لي لم يمت ... ثم أتيت تخبرينني في الصباح ؟

ولم يدع لزوجته فرصة ، لتفصح عن رأيها ؛ فتبرر عملها ... وخرج من منزله مغضباً ... وقصد رسول الله ... يشكو زوجته ...

وهناك ... في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ... راح « أبو طلحة يبسط شكواه إلى النبي الكريم ... فأخبره بما كان من زوجه « أم سليم » تلك الليلة ...

فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن أزال ما بنفسه من حنق وغيظ بقوله : (بارك الله لكما في غابر ليلتكما) [1] .

ثم أقبل رسول الله ﷺ بوجهه على « أبي طلحة » ، وكأنما

---

(١) رواه : « الطيالسي » .

هو يضع البلسم الشافي على الجروح ، فقال : (إذا ولدت فأتوني بالصبي)[1] .

. . . .

وعاد « أبو طلحة » أدراجه ... وقد امّحى من نفسه كل ما بها من حنق وغيظ ...

واستسلم لقضاء الله ، بعد إذ لم يسعه الاعتراض ...

وراح إلى « البقيع » ... يواري جثمان ولده الصغير في التراب ...

وعلى شفير القبر الذي حفره بيده ، وقف يذرف دمعتين كبيرتين : دمعة حارة ، ودمعة باردة ...

فأما الدمعة الحارة ، فكانت حزناً على فراق ولده « طلحة » ... ذاك الطفل الذي كان مطمح أمنيات كثيرة ، كان يرجو الله أن يحققها فيه !

وأما الدمعة الباردة ، فكانت دمعة فرح ، بما أعده الله له من جنان واسعة ، ونعيم مقيم !

---

(١) رواه : « الطيالسي » .

وأطلق الأب زفرة خرجت من أعماق صدره الحزين ...

ثم التفت يدعو ربه ... أن يتقبل منه صبره واحتسابه لمصيبته ... فيعوضه خيراً منه ، في دينه ودنياه !

* * *

ومضت بضعة أيام ، قبل أن يركن « أبو طلحة » إلى زوجه ، ويخبرها بشكواه الى رسول الله ، وأن رسول الله ﷺ سُرّ لصنيعها ليلة وفاة ابنها ، ودعا لهما بأن يبارك الله لهما في ليلتهما تلك ...

وهاله جواب « أم سليم » عندما رآها تهز رأسها ، وتقول مطرقة :

ـ أجل يا « أبا طلحة » . . إني لآنس أن الله قد بارك لنا في ليلتنا تلك ... وآمل أن يحيطنا ـ جل وعلا ـ بتمام عنايته ورعايته ...

ولم يتمكن « أبو طلحة » من فهم مرادها من هذا الكلام؛ لذلك راح يسائلها عن مقصودها فقال :

ـ ماذا تعنين يا « أم سليم » ؟!

وكان أن أتى الجواب الصريح :

ـ إني حامل منذ تلك الليلة . . وآمل أن يكون الحمل ولداً

مباركاً ... يدخل السرور على قلبينا ... فيعوضنا عن مصابنا ..

وقاطعها الزوج يقول ، وقد امتلأ فؤاده فرحاً :

ـ هنيئاً لك يا « أم سليم » !! ولن يخيب الله فألك ، إن شاء الله ... فأنت امرأة صابرة ... وما كان الله ليضيع أجر من أحسن عملاً !! قال الله تعالى : « **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً** »[1] .

* * *

ومرت أشهر تسعة مرور البرق الخاطف ... شاركت خلالها « أم سليم » بعدد من الغزوات مع رسول الله ... كما رافقت زوجها « أبا طلحة » في خدمة رسول الله ﷺ في أسفاره ...

ولم يمنعها بطنها المنتفخ ، من أن تشارك في « غزوة حنين » .. ولم تمنعها أنوثتها ، من أن تحمل سلاحاً تدافع به عن نفسها .. إنها وإن كانت أنثى إلا أنها أخت الرجال ... ثبتت مع رسول الله ﷺ حين فر الرجال !!

لقد رأت بأم عينها الناس ينهزمون عن رسول الله ... ورأت

---

(١) « سورة الكهف » : الآية : ـ ٣٠ ـ

رسول الله ﷺ يثبت ، في قلة قليلة من أصحابه .. ورأت المشركين يغشون رسول الله ويحيطون به ، حتى طمع بعضهم في أن يأخذه أسيراً ... رأت ذلك كله ورأت إلى جانبه ثباتاً بطولياً فريداً من نوعه ، يتجلى لها في شخص رسول الله ﷺ حين ينزل عن بغلته ، ويجالد المشركين وجهاً لوجه وهو يقول :

أنا النبي لا كذبْ   أنا ابن عبد المطلب

فلم تتمالك « أم سليم » نفسها عندئذ ... فحزمت وسطها ببرد لها ، وأدنت رأس جملها حتى أمسكت به من خزامته[1]، ليكون سلس القياد ، فلا يغلبها ويفر مع سيل من الناس الذين انفضوا عن رسول الله ﷺ ... وأمسكت خنجرها بيدها... وحامت حول الرسول القائد تدفع عنه الأعداء...

ورآها رسول الله ﷺ ... فقال : أم سليم ؟! قالت نعم ، بأبي أنت وأمي يارسول الله ! اقتلْ هؤلاء الذين يفرون عنك، كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك ؛ فإنهم لذلك أهل !! فقال رسول الله ﷺ : أو يكفي الله يا أم سليم ![2].

---

(١) الخزامة : حلقة من شعر ، تجعل في أنف البعير ، ليكون سلس القياد .

(٢) « تاريخ الطبري » ج ٣ ص ٧٧

والتفت إليها زوجها « أبو طلحة » فرأى الخنجر بيدها ، فقال لها:

– ماهذا معك يا أم سليم ؟

قالت : خنجر أخذته معي ، إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به .

فالتفت « أبو طلحة » إلى رسول الله ، متعجباً ، وقال : ألا تسمع ماتقول « أم سليم » يارسول الله ؟! [1]

واندفع الناس في الملحمة ... واستطاع « أبو طلحة » أن يقتل عشرين من المشركين ويأخذ سلبهم غنيمة ..

وأتى نصر الله ... وتضعضع المشركون لرمية من الله كانت وراء رمية رسوله « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » [2] .

وما كاد المؤمنون – الذين انهزموا مع الناس ساعة الزلزلة – يعودون ، مستجيبين لنداء رسول الله ﷺ ، حتى وجدوا القتلى والأسرى مكتفين بين يدي رسول الله ﷺ .

* * *

---

(١) « تاريخ الطبري » : ج ٣ ص ٧٧ .
(٢) « سورة الأنفال » : الآية –١٧–

وعاد الناس ... وعاد « أبو طلحة » و « أم سليم » مع رسول الله ﷺ فرحين بأن قيض الله لهما خدمة رسوله ...

وعسكر الناس مع رسول الله ، في ظاهر المدينة ... ينتظرون بزوغ الشمس حتى يدخلوها ... على عادة النبي[1] ﷺ الذي كان إذا أتى من سفر أو غزو ، يقيم ليلة خارج المدينة ، ثم يدخلها في اليوم التالي ؛ وذلك لئلا يرى من أهله ماقد يكره ..

وكان « أبو طلحة » وزوجه من بين أولئك الذين عسكروا مع رسول الله ﷺ ...

لقد كان « أبو طلحة » شديد التعلق برسول الله ... يلتزمه أينما كان ، في حله وترحاله ... يقيم معه حيث يقيم ... ويسافر في خدمته حيثما سافر ...

ولكن أمراً ما أراد أن ينغص عليه عادته تلك ، ويمنعه من تحقيق ما كان يرجوه ، من دخول المدينة ، برفقة حبيبه رسول الله ...

لقد أخبرته زوجه ، بأنها تشعر بآلام المخاض تراودها ...

---

(١) كان النبي (ص) « إذا أتى المدينة من سفر لايطرقها طروقاً » (رواه البخاري) .

فعرف أنه سيضطر إلى الاحتباس عليها ، فيفقد صحبة رسول الله في دخول المدينة المنورة ...

فأسف لذلك أسفاً شديداً ، وكأنما هو قد فقد خيراً كثيراً لايعوض أبداً ...

★ ★ ★

وانطلق رسول الله ﷺ وصحبه الكرام معه ...

و « أبو طلحة » حبيس هناك ... قد حيل بينه وبين مراده ... قد منع من خدمة رسول الله ساعة من الزمن !!

وما كاد الركب ينفصل عن « أبي طلحة » بضع خطوات ، حتى أحس بالقلب يتقطع ... وإذا هو واقف ، يجأر إلى السماء بقوله :

— « إنك لتعلم يارب ... أنه ليعجبني أن أخرج مع رسول الله ﷺ إذا خرج ... وأدخل معه إذا دخل ... وقد احتبست بما ترى !! »[1] .

وجد « أبو طلحة » في مكانه ، مبتهلا إلى السماء ... ولسان حاله يتطلب العون الكبير من لدن من هو :

---

(١) رواه « البخاري »

« رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار »[1]

ولكأنما اطلع رب العزة على رجائه هذا .. وعرف منه صدق الطلب ، فلباه ...

وإذا « أم سليم » تأتي إليه مهرولة ، وهي تقول :

- يا « أبا طلحة » ! يا « أبا طلحة » !

فالتفت إليها متلهفاً ، يقول :

- ماذا بك يا « أم سليم » ؟؟

- إنني « ما أجد الذي كنت أجد »[2]!

هيا انطلق بنا ... لقد صرف الله عني تلك الآلام ...

- حمداً لك يارب وشكراً !

هكذا قال « أبو طلحة » وهو يرفع رأسه إلى السماء ، ثم التفت إلى « أم سليم » يقول :

- هيا أسرعي نلحق برسول الله ﷺ :

وسارع الاثنان يضعان متاعهما على الراحلة ... يغذان السير حتى يلحقا بالركب ...

---

(١) « سورة ص » : الآية - ٦٦.

(٢) رواه : « البخاري » .

لقد يسر الله لأبي طلحة ما أراد ... ودخل المدينة مع رسول الله (ص) !!

★ ★ ★

وفي منزل « أبي طلحة » ... وفي الغرفة التي فاضت فيها روح الطفل الصغير « طلحة » منذ تسعة أشهر ... وضعت « أم سليم » مولودا جديداً ... استقبله الجميع بالفرح والغبطة ... إنه بشرى الرسول الكريم !!

وكادت شدة الفرحة ، تنسي الحاضرين ما كان أمرهم به النبي ﷺ ، حين بشرهم بالغلام ...

غير أن النفساء ، ما كادت تستريح من آلام الوضع ، حتى التفتت إلى ابنها الكبير ، تشير له إلى المولود الجديد وتقول :

– « يا أنس !! لا يطعم شيئاً حتى تغدو به إلى رسول الله ﷺ »(١)

ثم التفتت إلى « أبي طلحة » تقول له :

– إنه بركة دعوة طيبة : « بارك الله لكما في غابر

(١) رواه « احمد » .

ليلتكما » ... إنه بشرى رسول الله ﷺ ... ألم يقل لك : (إذا ولدت فأتوني بالصبي)[1] ؟ !

- بلى يا « أم سليم » !!

هكذا قال « أبو طلحة » ثم رفع يديه إلى السماء وهو يتابع قوله :

- جزاك الله عني كل خير ... وجزى الله عنا رسوله - عليه أفضل الصلاة والسلام - خير الجزاء ...

★ ★ ★

وانصرفت الأسرة إلى النوم ...

غير أن أحداً من أفرادها لم يكن يأتيه النوم إلا لماماً ...

لقد بات المولود الجديد يبكي ... يلتفت بشفتيه الى حيث يتوقع شيئاً من طعام ...

وأخوه غير الشقيق « أنس بن مالك » إلى جانبه ... يحنو عليه ... ويلهيه عن بكائه بكل ما يستطيع من وسائل ، حاشى أن يضع في فمه شيئاً مما يمكن أن يعد طعاماً ... إنه لم ينس تحذير والدته

---

(١) رواه : « الطيالسي » .

إياه بقولها : «يا أنس ! لا يطعم شيئاً حتى تغدو به إلى رسول الله ﷺ»[1].

وباتت الأم ، تحمد الله على ما رزقها من ولد يكون قرة عين لها ولوالده ...

أما الأب ... فإنه ذهب يتأمل فضل الله عليه بهذه المرأة المؤمنة ... لقد ناله الخير العميم ، منذ ساعة خطبته إياها ... وراح يتصور يوم أن أتاها خاطباً ، فقالت له :

– « يا أبا طلحة ... ما مثلك يرد ... ولكنك امرؤ كافر »[2] !!

ورفضت أن تتزوجه حتى يدخل في الاسلام ... ولم يُجْدِه نفعاً إغراؤه إياها بالذهب والفضة !!

وهو لا يزال يذكر جوابها على إغرائه إياها بالاصفر والأبيض ؛ حتى لكأنها ماثلة أمامه ، تردد عليه بكلمتها الرائعة ، التي قالتها يومذاك : « إني لا أريد صفراء ولا بيضاء »[2] وإنما « أريد منك الإسلام[2] » !! ثم أردفت تؤكد ذلك بقولها : «فإن تسلم فذاك مهري ... ولا أسألك غيره »[3] !!

---

(١) رواه : « أحمد »

(٢) رواه : « الطيالسي »

(٣) رواه « النسائي »

وعرف « أبو طلحة » حينذاك أن الأمر جد ... ولا يحتمل الأخذ والرد ... فلا مجال أمامه ، للفوز بهذه المرأة الجميلة ، إلا أن يقبل بهذا الشرط ... ولمَ لا يقبل بهذا الشرط الذي كان أقرب ما يكون إلى قلبه ؟؟ وهو الذي سمع عن الاسلام الشيء الكثير ، مما يروق له ويعجبه ... لذلك فإنه لم يتردد قط في قبول هذا الشرط ... والتفت فوراً إلى « أم سليم » يقول لها :

- « فمن لي بذلك »[1]

وما أسرع الجواب :

- « لك بذلك رسول الله ﷺ »[1] !

وكان أن انطلق « أبو طلحة » - في ذاك اليوم - متعجلاً ... « يريد النبي ﷺ ... ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه ... فلما رآه قال : جاءكم « أبو طلحة » غرة الاسلام بين عينيه »[2] .

ما أجمل تلك الساعة ، التي لقي فيها « أبو طلحة » رسول الله ﷺ ! إنها لساعة دخل الايمان فيها إلى أعماق قلبه ... وعشق فيها المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام ... ولذلك

---

(١) رواه « الطيالسي »

(٢) المصدر نفسه .

فقد لازمه ، حتى إنه لم يكن ليفارقه في مقام او سفر ، فى سلم او حرب .

ولم يكد « ابو طلحة » ينتهي من طيف هـــذه الذكريات الحلوة الذي ألم به ، حتى اخذ يحمد الله ، الذي مَنّ عليه بهذه المرأة المؤمنة... المرأة التي شيدت له دعائم السعادةالحقيقية ، منذ ساعة لقائه الأول بها ... وعوّدته طعم الصبر على المصائب ، فلا يجزع ولا يهلع للنوائب ... وهاهي ذي تلد له اليوم وليداً مباركاً ... وأي وليـــد هو ؟؟ إنه بشرى رسول الله ﷺ وبركة تحف بوالديه (بارك الله لكما في غابر ليلتكما) !

★ ★ ★

وفي الصـــباح الباكر سار « أنس بن مالك » ـ خادم رسول الله ـ يحمل أخاه لأمه ، المولود الجديد ... وإلى جانبه مشى « أبو طلحة » يبتهل إلى الله شكراً على ما أنعم به عليه !

وطاف المصطفى ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بيده الكريمة على الوليد ... يمسح بها وجهه الجميل [1] ...

واختار له أن يسمى « عبد الله » ...

وكان ما توقعه الوالدان ... من بركات دعوة الرسول ﷺ ... فصار « عبد الله » قرة عين والديه !

---

(١) رواه : « أحمد » .

شب وترعرع ... « فما كان في الأنصار شاب أفضل منه »[١] .

ولم تقتصر بركة دعاء الرسول ـ عليه السلام ـ على « عبد الله » نفسه ... بل تبعته إلى أولاده التسعة ... فكانوا جميعهم من العلماء الحافظين لكتاب الله !

وكيف لا يكون هذا النسل طيباً طاهراً ... وهم من ذرية أم مؤمنة صابرة محتسبة ... باعت نفسها لله ... ووهبت حياتها لرسول الله ... قد تجملت بأسمى آيات الصبر ... رائدها في ذلك ، عقل كبير ناضج ، وإيمان عميق راسخ ، وحب لله ورسوله لا ينضب معينه ، ولا يغور ماؤه !

فلله أنتِ يا « أم سليم » ! أنت التي صنعت الأبطال ! انت التي صنعت بطلا قد فني في حب رسول الله ﷺ ، فما كان يفارقه في غزوة من غزواته قط ! أنت التي صنعت « أبا طلحة » ! فيالك من زوجة كانت سرعظمة زوجها ! حقاً انك زوجة ، لا كالزوجات !

لله أنت يا « أم سليم » : فأنت التي ولدت الأبطال ! ويكفيك فخراً أن ابنك « انساً » كان الخادم المخلص لرسول

---

(١) رواه : « أحمد » .

الله ﷺ .. وان ابنك « عبد الله » بشرى رسول الله ﷺ وافضل شباب الأنصار !

لله أنت يا « ام سليم » ! فأنت التي سرى نور ايمانك الى احفادك .. فكنت جدة لتسعة من المؤمنين الأخيار ، من حفظة القرآن ، المتفقهين في الدين :

لله انت يا ! « ام سليم » ويالك من ام كانت مثلاً يحتذي !

حقاً إنك ام ... لا كالأمهات !

إنك ـ والله ـ جديرة بأن تكوني نزيلة الجنان![1]

هنيئاً لك يا « ام سليم بنت ملحان » ... إنك اليوم تسعين في الجنان ... هنا وهناك ... ترتعين أنى شئت ! هنيئاً لك ... فإنك كنت :

زوجة . . لا كالزوجات ...

واماً .. لا كالأمهات ...

---

(١) روى الإمام « البخاري » في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال :
(دخلت الجنة فإذا انا بالرميصاء امرأة أبي طلحة)
وروى الإمام « مسلم » في صحيحه عن النبي ﷺ انه قال :
(دخلت الجنة فسمعت خشفة ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا هذه الرميصاء بنت ملحان أم انس بن مالك) .

قصة (أم سليم)

كما رواها الإمام « مسلم » في صحيحه

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا ابن عون عن ابن سيرين ، عن أنس بن مالك قال :

كان ابن لأبي طلحة يشتكي ، فخرج أبو طلحة ، فقُبض الصبي ، فلما رجع أبو طلحة . قال : ما فعل ابني ؟ قالت أم سُليم : هو أسكن مما كان . فقربت إليه العشاء ، فتعشى ، ثم أصاب منها ، فلما فرغ قالت : واروا الصبي .

فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : أعرستم الليلة ؟ قال : نعم . قال : اللهم بارك لهما .

فولدت غلاماً ، فقال لي أبو طلحة : احمله حتى تأتي به النبي ﷺ . فأتى به النبي ﷺ . وبعثت معه بتمرات فأخذه النبي ﷺ فقال : أمعه شيء ؟ قالوا : نعم . تمرات . فأخذها النبي ﷺ فمضغها ، ثم أخذها من فيه ، فجعلها في فيّ الصبي ثم حنكه ، وسماه عبد الله .

هل قرأت سلسلة (قصص من التاريخ) ؟

إنها سلسلة من القصص التاريخي ، تعمل على أن تنفض غبـــار النسيان ، عن تاريخنا المجيد ؛ ليكون ذاك التاريخ الناصع ، نقطة انطلاق إلى مستقبل مشرق ...

١ - الدين الحق : قصة تروي انتصار الإسلام الأعزل ، على التتار ذوي الجيوش الجرارة ... وذلك عندما قـــال بطل القصة « الشيـخ جمال الدين » للطاغية التتري :

« نعم ... قد يكون الكلب أغلى منا ثمناً - لو أننا لم ندن بالدين الحق » .

٢ - فأين الله !! : مجموعـــة من القصص القصيرة ، تروي :

★ صيحة « عبد الله بن عمر » في جوف الصحراء ...
★ اسلام الدكتور « كراين » الأمريكي الجنسية ...
★ إيثار الإمام « الواقدي » وإخوانه ...
★ الشيخ « عبد القادر » .. رجل العلم والتقوى ...

٣ - الإيمان والزنزانة المتجولة : قصة « كعب بن مالك » رضي الله تعالى عنه ... وهو يروي لنـــا الصراع العنيف ، الذي دار في نفسه ، وهو في سجنه الفريـــد من

نوعه ... ذاك السجن الذي أودعه فيه رسول الله ﷺ مدة خمسين يوماً .

٤ ـ أم .. لا كالأمهات : تروي لك قصة البطولة الحقيقية في :

★ أم ... عملت على إعداد ولدها ، فكان أستاذ الإمام مالك .

★ أب ... جاهدخلال ٢٨ عاماً متواصلة ، لم يعد خلالها إلى أهله .

★ ابن ... طلب العلم ، حتى صار مفتي المدينـــة المنورة غير منازع .

٥ ـ صراع بين الفضيلة والرذيلة : يروي الصراع النفسي العنيف الذي تعرض له بعض المؤمنين عندما جاءتهم الرذيلة تعرض نفسها عليهم .

٦ ـ مهد البطولات : يروي قصتين يفخر بهما التاريخ احداهما دارت حوادثها أثناء صراع أمتنا مع الرومان والثانية جرت في الجولان خلال حرب رمضان .

★ سلسلة (شعب الايمان) ـ

١ ـ الايمان بالله جل جلاله

٢ ـ الايمان بالرسل : يصدر قريبا ان شاء الله

تطلب جميعها من :

دار الرشـــيد

دمشق ـ ص.ب ٢٤١٣

يصدر قريباً للمؤلف

الطبعة الجديدة ، مزيدة ومنقحة ، من كتاب :

(النحل تسبح الله)

ـ الكتاب الذي تناولته بالدراسة المجلات والإذاعات العالمية .

ـ الكتاب الذي عدته مجلة (Bee World) الانكليزية أحد المراجع العالمية الأكثر علمية وفنية (The more technical)

الكتاب الذي يظهر التوافق الكبير بين العلم والدين ...

ـ فيه تأخذ بيدك إحدى النحلات ، لتخوض معك غمار خليتها ، فتقوم بدراسة علمية للنحلة : طباعها وتصرفاتها ، ولغة تخاطبها ، وطريقة إنجاز الأعمال في مملكتها ، وأسلوب الحكم لديها ، وكيفية صنعها العسل ، وما أودعه الله في العسل من خواص الشفاء ...

يتخلل ذلك كله ، لفتات نحو اليد الخفية ، التي أتقنت الصنع ، وأبدعت في الترتيب والتنسيق ...

كما يجري بين ثنايا هذا البحث العلمي المستفيض ، مقارنة دقيقة بين آراء العديد من كبار العلماء المجلين في مضمار العلم ، وبين معطيات الدين الحنيف ...

من منشورات دار الرشيد

- القادسية (طبعة ثانية) .
- اليرمــوك .
- نهاونــد .
- فتح مصر ومعركة ذات الصواري .
- فتح الاندلس (معركة وادي لكة) - جاهزة للطبع -
- الانسان بين العلم والدين .
- الاسلام وحركات التحرر العربية

★ مجموعة حكايات حارثة : للاستاذ عبد الودود يوسف

وهي مجموعة قصصية عن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم .

★ حكايات عن القرآن الكريم : للاستاذ عبد الودود يوسف،

« تحت الطبع »

★ كتاب « المناهج الاصولية في : للدكتور فتحي الدريني

الاجتهاد بالراي

وهو كتاب يجمع بين الدراسة الشرعية والقانونية .